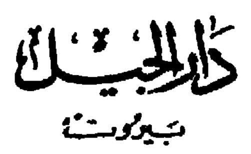
الدكتور حسين عطوان

وصف البحر والنهر في الشعر العربي

من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني



بيروت

وصف البحر والنهر
في الشعر العربي

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م

المقدمة

يصحح هذا البحث ما شاع بين الباحثين من أن الشعر العربي يكاد يخلو خلواً تاماً من وصف البحر والنهر ، إذ يثبت بالنص الناصع والدليل القاطع أن الشعراء العرب استلهموا بيئة البحر والنهر في قصائدهم ، وعرضوها معارض شتى في أشعارهم ، مع افتنانهم في الاستلهام والعرض .

ففي العصر الجاهلي الذي يجزم أكثر الدارسين بأن الشعراء فيه كانوا يجهلون البحر ، ولا يستوحونه في فنهم استقام لنا أنهم عرفوه ، ووقفوا وقفات مختلفةً عنده ، صوروا فيها مظاهره الواسعة المتنوعة ، وأشكال اصطناع العرب له في حياتهم ، فهم تارةً كانوا يشبهون الظعن المرتحلة في الصحراء بالسفن السائرة في البحر ، وهم تارةً أخرى كانوا يشبهون المحبوبة في روعتها ومنعتها بالدرة النفيسة ، ويستطردون إلى الحديث عن الغياصة والغاصة ، ويسترسلون في وصف استخراج الدرة من البحر ، وهم تارةً ثالثةً كانوا يصورون الرحلة البحرية التجارية ، أو الرحلة البحرية التاريخية ، وهم تارةً رابعةً كانوا يشبهون امتلاكهم للشعر والنثر ، وبراعتهم فيهما بمهارة الحوت الذي يسبح في البحر ، وهم تارةً خامسةً كانوا يصفون النهر في أشد حالات فيضانه ، ثم يفضلون الممدوح عليه في كثرة نواله ، ووفرة عطائه .

واتجه بعض الشعراء في العصر الأموي إلى وصف ارتحال الظعن من مكان إلى مكان بالسفن العظيمة التي كانت تسير في أنهار العراق ومصر . وعثرنا لشاعر من محارب على نص طريف صور فيه تصويراً مفصلاً طويلاً مخاوفه من أهوال البحر بعد أن ركب سفينة للغزو .

ووجد الشعراء في العصر العباسي الأول في وصف ارتحالهم إلى الممدوحين في السفن ، أو في خروج بعض ممدوحيهم بالسفن للنزهة النهرية ، وسيلة إلى التجديد في أجزاء القصائد التي تلي المقدمات ، والتي كان الشعراء الجاهليون والأمويون يلمون فيها بالرحلة الصحراوية ، فأكثروا لذلك من وصف رحلات النهرية ، إكثاراً شديداً غلب عليه استعارتهم لأوصاف الإبل والنوق والخيل ، ونعتهم للسفن بها ، حتى ليظن الدارس أنهم كانوا يصفون إبلا ونوقاً لا سفناً ، ولكن متأخريهم تخففوا إلى حد بعيد من استعارة تلك الأوصاف ، ومن مقارنة السفن بالإبل والنوق ، والمفاضلة بينهما .

وتمسك الشعراء في العصر العباسي الثاني بوصف الرحلة النهرية إلى الممدوحين ، وظلوا يستمدون في أوصافهم للسفن من الألفاظ التي تنعت بها الإبل والنوق . وأفاض ابن الرومي في تصوير هواجسه ووساوسه حين وصف رحلته إلى ممدوحه وعودته إلى أهله بالسفينة . واخترع البحتري موضوعاً جديداً لم يسبقه إليه أحد من الشعراء ، وهو وصف المعركة البحرية بين أسطول العرب وأسطول الروم وصفاً حياً بديعاً .

وللنصوص التي ظفرنا بها وسجلناها قيم متعددة لتباين دلالاتها الفنية والحضارية والتاريخية . فهي في مجموعها تكشف لنا عن أن الشعراء العرب أخفقوا في ابتكار ألفاظ ، واختلاق مصطلحات ، لوصف السفن وصفاً حقيقياً وأما وصف المسيب بن علس ، والأعشى ميمون بن قيس الغياصة والغاصة فيظهرنا على أن عرب اليمامة والبحرين في الجاهلية كانوا يحترفون

الغوص لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ، وأن من كانوا يقومون على هذه المهنة كانوا من الطبقات الفقيرة البائسة . وأما وصف بشر بن أبي خازم الرحلة البحرية التجارية فينبئنا بأن العرب في الجاهلية كانت لهم صلات تجارية بحرية وثيقة بالهند ، إذ كانت سفنهم تسير من البحرين إلى الهند ، وتجلب منها العطور والبخور والسلاح ، كما ينبئنا بالطريقة التي كان عرب الجاهلية يبنون سفنهم بها . وأما وصف الأعرابي المحاربي ارتياعه وهلعه من ركوب البحر في العصر الأموي ، فيدلنا على أن الدولة الأموية في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، كان لها أسطول يشترك في الفتوح الإسلامية بالبحر الأبيض المتوسط. وأما وصف البحتري في العصر العباسي الثاني المعركة البحرية التي دارت بين الأسطول العربي والأسطول الرومي فيؤكد حقيقة تاريخية هامة ، وهي أنه كان للعرب في عصر المتوكل أسطول ضخم هزم أسطول الروم ، وأغرق أكثر سفنه ، مما عرض له المؤرخون المسلمون عرضاً سريعاً ، ومما زَيَّفه المؤرخون البيزنطيون تزييفاً .

وعسى أن يكون في النصوص التي جمعناها وذكرنا مصادرها ، وشرحناها وحللناها ، ما يفيد الباحثين ، وما يكشف عن موضوع طريف من موضوعات الشعر العربي المهملة ، وعسى أن يكون فيها مادة صالحة يمكن أن يعتمد الدارسون عليها ، ويستخلصوا منها نتائج أدق وأعمق مما استخلصناه منها .

حسين عطوان

الفصل الأول

«في العصر الجاهلي»

(١)

« موقف الدارسين من وصف البحر والنهر »

لم يُعْنَ الدارسون القدماء والمحدثون بمعرفة الشاعر الجاهلي للبحر ، ووصفه لبعض مظاهره من مياه عميقة مترامية ، وأمواج عالية عاتية ، وتصويره لبعض جوانب الحياة فيه من أسماك وحيتان ، وحديثه عن اعتماد العربي عليه في معاشه كاستخراجه اللؤلؤ والمرجان منه ، وتسييره السفن العظيمة فيه .

وكنا ننتظر من محمد بن سلام الجمحي أن يعرض لأثر البحر في الشعر الجاهلي في كتابه : « طبقات فحول الشعراء » وهو يتحدث عن شعراء البحرين واليمامة ، لأنهم كانوا يعيشون على ساحل البحر ، ولأنهم كانوا يعرفون عن البحر ما لم يعرفه سواهم من الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحيون في أعماق الصحراء وأطرافها ، وفي بوادي نجد والحجاز ، ولأنهم لا بد أن يكونوا قد تأثروا به في شعرهم ، واستغلوه في فنهم ، بحكم اتصالهم به ، ومشاهدتهم للغواصين الذين كانوا يشتغلون باستخراج اللؤلؤ والمرجان منه ، ورؤيتهم للسفن الضخمة التي كانت تتراءى لهم فيه ، أو التي كانت تقصد مرافىء بلادهم وترسو فيها حاملة إليهم البضائع المختلفة من أقصى بلدان المشرق كالصين والهند وفارس ، أو بلدان إفريقية كالحبشة ، أو من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط . فإن هذه الصلة التجارية بين عرب الجاهلية ،

وبين الأمم التي كانوا يتجرون معها أصبحت حقيقية مقررة ، وقضية ثابتة ، لا شك يحيط بها ، ولا غموض يلفها ، ولا حاجة إلى إعادة القول فيها (١) .

ولكن ابن سلام لم يلتفت إلى شيء من ذلك ، فقد اقتصر في كتابه على الإشارة إلى أثر البيئة في كثرة الشعر الجاهلي وقلته ، وفي صعوبة أسلوبه وسهولته ، فلاحظ أن الشعر نما وازدهر واتصف بالضخامة والجزالة في البيئات البدوية ، لاتصال الحروب فيها ، ووعورة حياتها ، وأنه ضعف وانحسر ، وغلبت عليه الرقة والسلاسة في المجتمعات المدنية لاستقرارها وتحضرها (٢) .

ويبدو أن قلة وصف الشعراء الجاهليين للبحر ، وتشتت ما بقي منه في كثير من الدواوين والمصادر والمظان هما اللذان جعلا ابن سلام يهمل الوقوف عند أثر البيئة في شعراء البحرين واليمامة ، ولا يقع على تشبيههم لنوقهم وإبلهم ، وهي تقطع أميال الفلوات بالسفن التي تمخر عباب البحر ، ولا على تصويرهم الطويل المفصل للغواصين ، وهما اللذان حملا الجاحظ أيضاً — على سعة معرفته ، وتنوع ثقافته — على الإعراض عن الحديث عن السمك وغيره من الحيوانات المائية في كتابه : « الحيوان » ، لأنه لم يجد من الأشعار ما يزوده بمادة وفيرة يعتمد عليها ويختار منها ، لا في الشعر الجاهلي ، ولا في الشعر الأموي ، ولا في الشعر العباسي . ومن أجل ذلك نراه يقول (٣) : « لم نجعل لما يسكن الملح والعذوبة ، والأنهار والأودية ، والمناقع والمياه الجارية ، من السمك ، ومما يخالف السمك مما يعيش مع السمك باباً مجرداً ، لأني لم

---

(١) حضارة العرب ، لجوستاف لوبون ص : ٥٣٣ ، وفجر الاسلام ، لأحمد أمين ، ص : ١٢ ، والعرب والملاحة ، لجورج حوراني ص : ٩٢ ، وتاريخ العرب قبل الاسلام ، لجواد علي ٨ : ٧٥ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ص : ١١٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٧ .

(٣) الحيوان ٦ : ١٦ .

أجد في أكثره شعراً يجمع الشاهد ، ويوثق منه بحسن الوصف ، وينشط بما فيه من غير ذلك للقراءة . ولم يكن الشاهد عليه إلاّ أخبار البحريين ، وهم قوم لا يعدون القول في باب الفعل (٤) ،وكلما كان الخبر أغرب كانوا به أشد عجباً ، مع عبارة غثة ، ومخارج سمجة » .

وأما في العصر الحديث فيظن الدكتور طه حسين أن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا خالٍ من أي إشارة للبحر . ويزعم أن العرب في الجاهلية لم يكونوا يجهلون البحر ، ويحج لذلك بما ورد في القرآن الكريم من حديث طويل عنه ، وعن استغلال العرب له . وينتهي إلى أن خلو الشعر الجاهلي من وصف البحر سبب من الأسباب التي تدعو إلى الشك فيه . وفي ذلك يقول (٥) .

« من عجيب الأمر إنا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه ، فإذا ذكر فذكرٌ يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل . فهل كان العرب في الجاهلية يجهلون البحر حقاً ، ولا يصطنعونه في مرافقهم ؟ أما القرآن فيمن على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر ، وبأن لهم في هذا البحر منافع مختلفة ، أذكر منها الملاحة ، فالقرآن يذكر الجواري المنشآت في البحر كالأعلام . وأذكر منها الصيد ، ففي القرآن من على العرب بأنهم كانوا يستخرجون منه لحماً طرياً . وأذكر منها استخراج اللؤلؤ والمرجان ، ففي القرآن ذكر صريح لهذا . ولست أذهب في الغلو إلى أن أزعم أن قد كان للعرب أساطيل وسفن للتجارة والحرب ، ولا إلى أن أزعم أنهم كانوا يتخذون من الصيد واستخراج اللؤلؤ والمرجان مصدراً من مصادر الثروة الضخمة . ولكني ألاحظ أن ذكر القرآن لهذا كله ، وامتنانه على العرب بهذا كله دليل قاطع على أن العرب لم يكونوا يجهلون هذا كله . بل كانوا يعرفونه حق

---

(٤) الفعل : اي لا يعدون القول موجبا للثواب والعقاب ، كما يوجب الفعل الثواب والعقاب .
(٥) في الأدب الجاهلي ص : ٧٩ .

المعرفة ، وكانت حياتهم تتأثر به تأثراً قوياً . وإلاّ فما عَرَضَ القرآنُ له ، وما أقامَ الحجة به عليهم . فأين تجد هذا أو شيئاً من هذا في الشعر الجاهلي » ؟

ومن المحقق أن الصواب جانب الدكتور طه حسين في كل ما ذهب إليه ، واحتج له ، لأنه لم يصدر فيه عن استقصاءٍ شاملٍ لكل الدواوين والمجاميع الشعرية الجاهلية . وربما كان له بعض العُذر في عدم استقصائه لها ، ونظره فيها ، لأن بعضها لم يكن قد حُقِّقَ ونُشر في هذا الزمن المبكر الذي أصدر فيه كتابه : « في الأدب الجاهلي » . ولكن الذي أغراه بالوهم ، ومَدَّ له فيه أنه أراد أن يثبت بأضعف دليلٍ وأوهى حجةٍ صحةَ مذهبه في رفض الشعر الجاهلي ، وصدقَ زعمه في أنه مصنوع موضوع في الإسلام .

وكل من يرجع إلى الشعر الجاهلي ، ويطيل البحث فيه يرى أن به تصويراً واسعاً متنوعاً للبحر ، ويخلص إلى أن الشعراء الجاهليين أفادوا منه فوائد كثيرةً في معانيهم وصورهم ، مع التنويع في الأخذ ، والافتنان في العرض . ولكن تصويرهم له ، واستمدادهم منه لا يَعْدِلان في كثرتهما تصويرهم للصحراء ، وعنايتهم بوصف كل صغيرة وكبيرة ، وكل جامدة ومتحركة من مظاهر الحياة فيها،واستيحاءهم أكثر معانيهم وصورهم وموضوعاتهم منها ، لأن معظمهم كانوا يعيشون في الصحراء أو في البادية ، ولأن الصحراء كانت تشكل القسم الأكبر من البيئة الجاهلية .

(٢)

« تشبيه الظعن بالسُّفن »

ويمكن أن نجمل وصفهم للبحر ، واعتمادهم في فنهم عليه في موضوعات عديدة ، أولها : تشبيه الظعن المرتحلة في الصحراء بالسفن العظام التي تسير في البحر . وهو تشبيه لا يخلو منه ديوان شاعر جاهلي ، سواء من كان منهم من أبناء القبائل التي كانت تنزل بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية ، تلك التي كانت تمتد من البصرة إلى عمان ، والتي كانت تعرف عند القدماء باسم البحرين ، أو من كان من أبناء القبائل التي كانت تقيم في نجد والحجاز . فنحن نراه عندهم جميعاً ، مع ملاحظة أن منهم من أوجزه وركزه ، ومنهم من أطاله وفصله ، ومع ملاحظة أنهم جميعاً يشتركون في صفتي الإيجاز والإطالة ، دون أن يكون الإيجاز مقصوراً على شعراء القبائل النجدية والحجازية أو يكون التطويل والتفصيل غلاّبَيْن على شعراء القبائل التي كانت تمتد على ساحل البحر في اليمامة والبحرين .

ومن الشعراء الجاهليين الذين ألمّوا بهذا التشبيه إلماماً سريعاً امرؤ القيس ابن حجر الكندي ، إذ يقول (٦) :

بِعَيْنَيَّ ظُعْنُ الحَيِّ لمّا تحمّلُوا لدى جانب الأفلاج من جنبِ تيمَرا (٧)
فشبّهْتُهُم في الآل لمّا تكَمّشُوا حدائقَ دَوْمٍ أو سفيناً مقيَّرا (٨)

---

(٦) ديوانه ص : ٥٦ .
(٧) بعيني : أي كان ظعنهم بمرأى عيني حين ارتحلوا . الظعن : جمع ظعينة : وهي المرأة في الهودج . الأفلاج : جمع فلج ، وهو النهر الصغير . والأفلاج وتيمرا : موضعان بالشام .
(٨) الآل : السراب . تكمشوا : تجمعوا أو أسرعوا . الدوم : شجر المقل .

ومنهم عبيد بن الأبرص الأسدي ، فإنه يقول (٩) :

تَبَيَّنْ صاحبي أترى حُمُولاً يشبِّهُ سيرُها عَوْمَ السَّفِينِ

ومنهم بشر بن أبي خازم الأسدي ، إذ يقول (١٠) :

فكأنَّ ظُعْنَهُمُ غداةَ تَحَمَّلُوا
سُفُنٌ تكفّأُ في خليجٍ مُغْرِبِ (١١)

ومنهم المرقش الأكبر ، فإنه يقول (١٢) :

لِمَنِ الظّعْنُ بالضُّحَى طافياتٍ شِبْهُها الدَّوْمُ أو خَلايا سَفِينِ

ومنهم النابغة الذبياني ، إذ يقول (١٣) :

كأنَّ الظّعْنَ حينَ طفَوْنَ ظُهْراً
سَفِينُ البحْرِ يَمَّمْنَ القَراحا (١٤)

ومنهم زهير بن أبي سلمى ، فإنه يقول (١٥) :

يَغْشَى الحُداةُ بهمْ وَعْثَ الكثيبِ كما
يُغْشِي السفائنَ مَوْجَ اللُّجّةِ العَرَكُ (١٦)

---

(٩) ديوانه ص : ١٢٢ .
(١٠) ديوانه ص : ٣٥ .
(١١) تكفأت السفينة : تمايلت . المغرب : المملوء .
(١٢) المفضليات ص : ٢٢٧ .
(١٣) ديوانه ص : ٢٧ .
(١٤) طفون : علون . القراح : الأرض لا ماء ماء فيها ولا شجر .
(١٥) مختار الشعر الجاهلي ص : ٢٥١ .
(١٦) الوعث : اللين . اللجة : معظم الماء . العرك : الملاح .

فهؤلاء الشعراء اكتفوا إما بتشبيه الظُّعُن في حركتها وسرعتها بالسفن ، وإما بتشبيه الظُّعُنِ وهي تتجشم الأخطار والقفار بالسفن التي تسير في بحر هائج مضطرب ، وإما بتشبيه الظُّعُنِ في شكلها بهيكل السفن ؛ دون أن يتجاوزوا ذلك إلى الحديث بالتفصيل عن البحر والسفن والملاّحين ، مما نراه عندهم في أمثلة أخرى ، ومما نراه عند غيرهم من الشعراء الذين لم نذكرهم . وَوَصْفُ طرفة بن العبد لظُعُنِ صاحبته المالكية مشهور ، وتشبيهه لها بالسفن ، وانتقاله إلى ذكر أنواع السفن ، وحركاتها ، وتوجيه الملاّحين لها ذائع معروف ، وهو قوله (١٧) :

كأنَّ حُدُوجَ المالكيّةِ غُدوَةً
خلايا سفينٍ بالنّواصفِ من دَدِ (١٨)

عَدولِيّةٌ أو من سَفينِ ابنِ يامنٍ
يجُورُ بها الملاحُ طَوْراً ويَهتَدي (١٩)

يَشُقُّ حُبابَ الماءِ حَيزُومُها بها
كما قَسَمَ التُّرْبَ المُفايِلُ باليَدِ (٢٠)

وقريب منه في طوله وتفصيله قول عبيد بن الأبرص (٢١) :

---

(١٧) ديوانه ص : ٢٠ .

(١٨) الحدوج : جمع حدج ، وهو مركب من مراكب النساء . الخلايا : جمع خلية ، وهي السفينة العظيمة . النواصف : الاماكن المتسعة من نواحي الأودية . دد : اسم واد .

(١٩) عدولية : منسوبة الى عدولى ، وهي قبيلة من أهل البحرين : ابن يامن : رجل من تلك القبيلة . يجور : يميل عن الطريق الصحيح .

(٢٠) حباب الماء : معظمه . الحيزوم : الصدر . المفايل : ضرب من اللعب ، وهو ان يجمع التراب فيدفن فيه شيء ، ثم يقسم التراب قسمين ، ويسأل عن الدفين في أيهما هو .

(٢١) ديوانه ص : ٣٠ .

تَبَصَّرْ خَليلي هلْ ترَى مِنْ ظعائِنٍ
يمانيةٍ قد تَغْتَـــدي وتَرُوحُ (٢٢)

كَعَوْمِ سَفِينٍ في غوارِبِ لُجَّةٍ
تكَفَّؤُها في وسْطِ دجلةَ رِيحُ (٢٣)

جَوانِبُهـــا تَغْشى المتالفَ أشْرَفَتْ
عليهنَّ صُهْبٌ من يهودَ جُنُوحُ (٢٤)

وأكثر منهما تدقيقاً ، وأشد مراعاةً للفروق بين الظُّعن والسُّفن والنوق قول المثقب العبدي (٢٥) :

وهُنَّ كـــذاكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلْجاً
كأنَّ حُمُولَهُنَّ عـــلى سَفِينِ (٢٦)

يُشَبَّهْنَ السَّفِينَ وهـــنَّ بُخْتٌ
عُراضاتُ الأباهِرِ والشُّؤونِ (٢٧)

كأنَّ الكُورَ والأنْساعَ منهـــا
على قَرْوَاءَ ماهرةٍ دَهِـــينِ (٢٨)

---

(٢٢) تغتدي : تذهب في الصباح . تروح : ترجع في العشي .
(٢٣) الغوارب : الأمواج . اللجة : معظم الماء . تكفؤها : تميلها .
(٢٤) تغشى : تدخل . المتالف : مواضع التلف والهلاك . الصهب : شقر الشعر ، صفة للملاحين . جنوح : جمع جانح ، وهو المائل .
(٢٥) المفضليات ص ٢٨٨ .
(٢٦) فلج : طريق أو واد . الحمول : الهوادج .
(٢٧) البخت : جمال طوال الأعنــاق . عراضات : جمع عراضـــة بمعنى العريض المفرط . الأباهر : الظهور . الشؤون : العروق التي تجري منها الدموع الى العينين .
(٢٨) الكور : خشبة الرحل واداته . الانساع : الحبال. القرواء : السفينة الطويلة . الماهرة : السابحة . الدهين : المدهونة .

يَشُقُّ المـاءَ جُؤْجُؤُها ويَعْلُو
غوارِبَ كلِّ ذي حَدْبٍ بَطِينِ (٢٩)

وإنما ضربنا هذه الأمثلة — على كثرتها ومشابهة بعضها لبعض — لندل على حقيقتين : الأولى : ان تشبيه الظُّعن بالسُّفن كان شائعاً معروفاً عند المتقدم والمتأخر من الشعراء الجاهليين . والثانية : أنهم استخدموه استخدام العارف له ، المدقق فيه ، المستطرد منه حيناً إلى ذِكْرِ البحر وأمواجه ، والسفن وحركاتها وأشكالها ، والملاّحين وأصولهم وعملهم ، كما استعملوا أيضاً المصطلحات البحرية الدقيقة التي تليق به ، دون أن يعمدوا إلى الألفاظ التي توصف بها الإبل والخيل ، أو يستعيروا شيئاً منها .فقد استعملوا ألفاظ الخلايا والسفن ، والعوم والمقير والدهين ، والموج والغارب واللجة ، والعرك ، وكلها مما يناسب المقام ، بحيث نستطيع أن نزعم أنهم وصلوا في التدقيق إلى غاية أبعد مما وصل إليه خالفوهم من الشعراء العباسيين الذين وصفوا الرحلة النهرية في السفن ، والذين عجز بعضهم عن استخدام الكلمات والمصطلحات البحرية ، وأخذ يستمد في وصفه من المعجم البدوي الصحراوي ، مُشَبِّهاً السفن في حركتها وسرعتها وشكلها بحيوان الصحراء وطيرها ، ومبتعداً بذلك عن إعطاء الرحلة النهرية صورتها الصحيحة ، وألفاظها التي تلائمها ، ومُمْعِناً في البداوة اللفظية إمعاناً شديداً ، وكأنه كان يصور ناقةً تقطع القفار ، لا سفينة تسير في الأنهار !

---

(٢٩) الجؤجؤ : الصدر . الغوارب : أعالي الموج . الحدب : ارتفاع الموج . البطين : البعيد الواسع .

(٣)

« تشبيه المحبوبة بالدرة ووصف الغوص والغواصين »

وثاني الموضوعات كثرةً وشيوعاً ، وأبعدها أهميةً وتفصيلاً تشبيه المحبوبة في حسنها وجمالها بالدرة ، ثم الخروج إلى وصف استخراج الدر من البحر . وهو وصف لم يتخصص فيه شعراء القبائل التي كانت تنزل في اليمامة مثل قيس بن ثعلبة التي ينتمي إليها الأعشى ميمون بن قيس ، والمسيب بن علس ، لأن شعراء القبائل النجدية والحجازية قد ساهموا معهما فيه ، وخاصةً امرأ القيس بن حجر الكندي ، والنابغة الذبياني ، وقيس بن الحطيم ، والمخبل السعدي التميمي . ولكن يحسن أن نسجل أن هؤلاء الشعراء اقتصروا على تشبيه المحبوبة بالدرة ، وإثبات اسم الغَوّاص الذي أخرجها ، أو نَزَعَ الصدفَ عنها ، في بيت واحد ، لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً كثيراً عن الغياصة والغواصين ، إلاّ المُخَبَّلَ السعدي ، فإنه يختلف عنهم ، فقد عَرَضَ للغواص وشكله وهيئه ، وما كان يستعين به من الزيت في أثناء غوصه ليقي جلدَه من التشقق ، وليضيء له في قاع البحر ، كما عَرَضَ أيضاً للمكان الذي استخرج الدرة منه ، وهو البحر العميق الغور ، المليء بالسمك الكبير . وإنما أسعفه في مَدِّ هذا الوصف أنه كانت له معرفة بالغياصة والغاصة ، فإن عشائر قبيلته كانت تنتشر على ساحل البحر من اليمامة إلى موقع البصرة ، حيث كان الغاصة يكثرون ويمارسون عملهم . أما الشعراء الذين كانوا يقيمون في اليمامة ، موطن استخراج اللؤلؤ في الجاهلية (٣٠) ، فجاء وصفهم للدرة واستخراجها طويلاً طولاً شديداً ، لأنهم كانوا به أعرف ، فكان تصويرهم له أدق وأطرف .

---

(٣٠) مروج الذهب ١ : ١٦٨ .

ومثال التشبيه الموجز للمحبوبة بالدرة قول امرىء القيس بن حجر الكندي (٣١) :

خُدلَّجَةٌ رَوْدَةٌ رَخْصَةٌ كدُرَّةِ لُجٍّ بأيدي الخَوَل (٣٢)

وقول النابغة الذبياني (٣٣) :

أَوْ دُرَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غَوَّاصُها
بهِجٌ متى يَرَها يُهِلَّ ويَسْجُدِ (٣٤)

وقول قيس بن الخطيم (٣٥) :

كأنّها دُرَّةٌ أحاطَ بها الـ
غَوَّاصُ يَجلو عن وجهِها الصَّدَفُ (٣٦)

ومثال التشبيه المفصل بعض التفصيل قول المخبل السعدي ٣٧) :

كعقيلَةِ الدُّرِّ استَضاءَ بها
مِحْرَابَ عرشِ عزيزِها العُجْمُ (٣٨)

---

(٣١) ديوانه ص : ٢٩٨ .
(٣٢) الخدلجة : الفتاة الحسنة الساقين . الرؤدة : الناعمة اللينة . اللج : معظم الماء . الخول : العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، الواحد والجميع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء .
(٣٣) مختار الشعر الجاهلي ص : ١٨٤ .
(٣٤) يهل : يرفع صوته بالتكبير .
(٣٥) الأصمعيات ص : ١٩٧ ، وديوانه ص : ٦٠ .
(٣٦) يجلو : ينشق أو ينفرج . الصدف : فاعل ليجلو .
(٣٧) المفضليات ص : ١١٥ .
(٣٨) عقيلة كل شيء : خيرته . المحراب : صدر المجلس ، وهو منصوب على نزع الخافض .

أغلى بهـا ثمنـاً وجـاءَ بهـا
شَخْتُ العِظـامِ كأنَّه سَهْمُ (٣٩)

بلَبـانِهِ زَيْتٌ وأخرَجَهـا
مِنْ ذي غَوارِبَ وَسْطَهُ اللُّخْمُ (٤٠)

ومثال التشبيه الطويل أشد الطول قول المسيب بن علس ، أو الأعشى ميمون بن قيس ، لأن الأبيات تنسب إلى كل منهما (٤١) :

كجُمانَةِ البحْرِيِّ جاءَ بهـا غَوّاصُها من لُجّةِ البحْرِ (٤٢)
صُلْبُ الفُؤادِ رئيسَ أرْبَعَةٍ متخالفي الألْوانِ والنُّجرِ (٤٣)
فتَنازَعوا حتى إذا اجْتَمَعُوا ألْقَوْا إليه مقالِدَ الأمْرِ (٤٤)
وَعَلَتْ بهمْ سَجْحاءُ خادِمَةٌ تَهْوي بهم في لُجّةِ البَحْرِ (٤٥)

---

(٣٩) أغلى بها ثمناً : اي اشتراها العزيز بثمـن كثير . شخت العظـام : غواص دقيق العظام . كأنه سهم : يشبهه به في سرعته ومضائه .
(٤٠) اللبان : الصدر . الغوارب : أعالي الموج . اللخم : سمك كبير .
(٤١) خزانة الأدب ٣ : ٢١٣ .
(يقول عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب ٣ : ٢١٦ : ان أبا عبيدة وابن دريد وغيرهما نسبا هذه الأبيات للأعشى ، أما الأصمعي فقد اثبتها للمسيب بن علس . وقد نقلها هو من ديوان الأعشى ، وهي جزء من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب الكندي) .
ومعروف أن المسيب خال الأعشى ، وأن الأعشى كان راويته ، وكان يطرد شعره ، ويأخذ منه ، مما يجعـل ذلك أدعى للخلط بين شعر كل منهما .
(٤٢) الجمانة : حبة تعمل من فضة كالدرة . لجة البحر : معظمه .
(٤٣) صلب الفؤاد : قويه شديده . رئيس أربعة : حال. متخالفي الألوان: صفة اربعة . النجر : الأصـل . اي هؤلاء الأربعة أصلهم مختلف ، وكذلك ألوانهم مختلفة .
(٤٤) تنازعوا : اختلفوا .
(٤٥) السجحاء : الناقلة طويلة الظهر ، وأراد السفينة الطويلة .

حَتّى إذا مـا ساءَ ظَنُّهُـمُ	ومَضى بهمْ شَهْرٌ إلى شَهْرِ
ألْقى مَراسِيَـهُ بتَهْلُكَـةٍ	ثَبَتَتْ مَراسيها فما تَجْري (٤٦)
فانْصَبَّ أسْقَفُ رأسُهُ لَبِـدٌ	نُزِعَتْ رَباعيتـاهُ للصَّبْرِ (٤٧)
أشْغَى يَمُجُّ الزَّيْتَ مُلْتَمِسٌ	ظمآنُ مُلْتَهِبٌ مِنَ الفَقْرِ (٤٨)
قَتَلَتْ أباهُ فقـالَ أتْبَعُـهُ	أو أسْتَفيدَ رَغيبَةَ الدَّهْرِ (٤٩)
نَصَفَ النَّهـارُ المـاءُ غامِرُهُ	وشريكُهُ بالغَيْبِ ما يَدْري(٥٠)
فأصابَ مُنْيَتَهُ فَجـاءَ بهـا	صَدَفِيَّةً كمُضيئَةِ الجَمْرِ (٥١)
يُعْطَى بهـا ثَمَناً ويَمْنَعُها	ويقولُ صاحِبُهُ ألا تَشْري (٥٢)
وتَرَى الشَّواري يَسْجُدونَ لها	ويَضُمُّها بيَدَيْهِ للنَّحْرِ (٥٣)
فَتِلْكَ شِبْهُ المـالكيَّةِ إذْ	طَلَعَتْ ببَهجَتِها منَ الخِدْرِ(٥٤)

---

(٤٦) المراسي : جمع مرساة ، وهي آلة ترسي بها السفن . التهلكة : الخطر والهلاك .

(٤٧) انصب : رمى بنفسه في البحر ، وغاص لاخراج الدر . الأسقف : الطويل في انحناء . لبد : متلبد الشعر . الرباعيتان : سنان . ونزعت للصبر : خلعت ليشتد احتماله .

(٤٨) في خزانة الأدب أشفى ، والتصحيح من المخصص لابن سيده ١ : ١٥٠ . الأشغى : الذي اختلفت نبتة أسنانه بالطول والقصر ، والدخول والخروج . وانظر الغوص على اللؤلؤ في المصادر العربية القديمة ، لعبد الله يوسف الغنيم ص : ٩ .

(٤٩) الرغيبة : العطاء الكثير . أي ان اباه هلك في حب هذه الدرة ، أو في تحصيلها ، فقال هذا الغائص : أتبع أبي في الهلاك ، أو أستفيد مالا كثيراً .

(٥٠)نصف : انتصف . الماء غامره : مبتدأ وخبر ، والجملة في محل نصب حال ، وواو الحال محذوفة ، والتقدير : والماء غامره .

(٥١) منيته : ما يتمناه . صدفية : حال من الضمير المجرور في بها .

(٥٢) يمنعها : يرفض بيع الدرة . الا تشرى : الا تبيع .

(٥٣) الشواري : جمع شار ، وهو المشتري .

(٥٤) طلعت : ظهرت . الخدر : البيت .

وهو يشبه صاحبته بالدرة التي استخرجها الغواص من أعماق البحر ، غير أنه توسع في تصوير استعداده ، واستعداد رفاقه للغوص ، فقد ذكر صفاتهم وألوانهم ، ثم مضى يتحدث عما ثار بينهم من جدال في أمر رحلتهم ، حتى اتفقوا ، فركبوا البحر ، وانتظروا فيه مدة طويلة ، ثم أرسوا سفينتهم ، وغاص رئيسهم إلى القاع ليبحث عن الدر ، وأخذ يقذف الزيت من فمه ليضيء له أسفل البحر ، حتى يبصر ، وغاب عن أصحابه ساعات متصلة دون أن يعلموا شيئاً من أمره ، وظل غائصاً حتى وقع على درة ، فاستخرجها ، وعاد بها إليهم ، فتوجهوا بها إلى السوق ليبيعوها للتجار ، طالبين فيها ثمناً غالياً ، وسعْراً عالياً لنفاستها وروعتها .

والأبيات تُعَدُّ وثيقةً تاريخيةً دقيقةً ، فهي تُنبئُنا بمن كانوا يحترفون الغوص على اللؤلؤ من العرب وغير العرب ، وبصفات الغواص الجسمية ، وطبقته الاجتماعية البائسة ، وبالوسائل التي كان يستعين بها في الغوص ، وخاصة الزيت ، فإنه كان يدهن به جلده لكي لا يؤثر ماء البحر الملح فيه ، ولا يشققه ، كما كان يمسكه في فمه ، ويمجه تحت الماء لينير له قاع البحر .

ومثاله أيضاً قول الأعشى ميمون بن قيس (٥٥) :

كأنّهــا دُرَّةٌ زهراءُ أخرَجَهَـا
غَـوَّاصُ دارِينَ يخْشى دونَها الغَرَقا (٥٦)

قَـدْ رامَها حِجَجاً مُذْ طَرَّ شارِبُهُ
حتى تسَعْسَعَ يرْجُوها وقد خَفَقا (٥٧)

---

(٥٥) ديوانه ص : ٣٦٧ .
(٥٦) زهراء : شقراء مشرقة . دارين : ثغر بالبحرين .
(٥٧) رامها : طلبها . حججا : أعواما . طر شاربه : ظهر . تسعسع : هرم . خفق : اضطرب .

لا النّفْسُ توئِسهُ منهـا فيَتْرُكُها

وقَدْ رَأى الرّغْبَ رأيَ العينَ فاحتَرَقا (٥٨)

ومـارِدٌ مِنْ غُواةِ الجِنّ يحرُسُها

ذُو نِيقَةٍ مُسْتَعِدٌ دُونَها تَرَقا(٥٩)

ليسَتْ لهُ غَفْلَةٌ عنها يُطيفُ بها

يخشى عليها سُرَى السّارِينَ والسَّرَقا(٦٠)

حِرْصاً عليها لَوَانّ النّفْسَ طاوَعَها

منهُ الضّميرُ لَيالي الغَيمَ أوْ غَرِقا

في حَوْمِ لُجّةِ آذيٍ لـهُ حَدَبٌ

مَن رامَها فارقَتْهُ النّفسُ فاعتَلَقا(٦١)

مَن نالَها نالَ خُلْداً لا انقطاعَ لَهُ

وما تمنّى فأضْحى ناعِماً أنِقا (٦٢)

تلكَ التي كلّفَتْكَ النّفسُ تأمُلُها

وما تعلّقْتَ إلاّ الحَيْنَ والحَرَقا (٦٣)

---

(٥٨) الرغب : سعة الأمل ، وطلب الكثير .
(٥٩) المارد : العاتي المتجبر . الغواة : جمع غاو ، وهو الضال المنهمك في الجهل . تنوق في الأمر : تأنق فيه وبالغ ، والاسم : النيقة . دونها : دون الدرة . الترق : الدرج .
(٦٠) يطيف : يدور حولها . السرى : سير الليل . السارين : الذين يصيدون بالليل .
(٦١) حومة الماء : معظمه . الآذي : الموج . الحدب : الموج وتراكب الماء في جريه . اعتلق : علقته المنية فمات .
(٦٢) أنقاً : مسروراً .
(٦٣) الحين : الهلاك .

وظاهر أنه يشبه محبوبته في حسنها ومنعتها بالدرة المتوهجة . ولكنه سرعان ما قفز إلى الحديث عن الغواص الذي انتزعها من البحر ، مُفيضاً في وصف طلبه لها منذ أن كان صغيراً حتى كبر ، ومغالبته لنفسه لعلها تنساها ، وتكف عن إغوائه بالغوص عليها ، خوفاً من أن يلقى الموت في سبيلها ، لأنها في أعمق أعماق البحر ، ولأن مارداً عَتِيّاً يحرسها ولا يغفل عنها ، ومبيناً أيضاً سبب تعلقه بها ، وحرصه عليها ، وقلة مبالاته بالموت من أجلها ، فهي درة نفيسة من فاز بها فاز بالخلد الدائم والنعيم المقيم .

وظاهر كذلك أن الأبيات ليست لها قيمة أبياته أو أبيات المسيب بن علس السابقة ، فهي لا تكشف عن جوانب حضارية أو اجتماعية ، ولكنها مع ذلك تُظْهِرُنا على ما كان يعانيه الغواصون من الجهد والمشقة ، وتُظْهِرُنا أيضاً على ما كان يجيش بصدورهم من الأحاسيس ، وهم يؤدون عملهم ، ويقدِّرونَ له ، ويفكرون في عاقبته .

(٤)

« وصف الرحلة البحرية التجارية والتاريخية »

وثالث الموضوعات وأقلها انتشاراً وتكراراً ، وأكبرها قَدْراً وخطراً هو تصوير الرحلة البحرية التجارية . وهو تصوير تميز به بشر بن أبي حازم الأسدي ، وأسهب فيه إسهاباً ملحوظاً ، مع العناية به ، والتجويد فيه ، وهو ينساب على هذا النحو (٦٤) :

---

(٦٤) ديوانه ص : ٤٧ .

أُجـالِدُ صَفَّهُمْ ولقَدْ أَراني
على قَرْوَاءَ تَسْجُدُ للرِّيـاحِ (٦٥)

مُعَبَّـدَةَ السَّقائِفِ ذاتَ دُسْرٍ
مُضَبَّرَةٍ جَوانِبُهـا رَداحِ (٦٦)

إذا رَكِبَتْ بصاحِبِها خَلِيجـاً
تذَكَّرَ ما لَدَيْهِ مِنْ جُناحِ (٦٧)

يَمُرُّ المَـوْجُ تَحْتَ مُشَجَّرات
يَلِينَ المـاءَ بالخُشُبِ الصِّحاحِ (٦٨)

ونَحْنُ عَـلى جَوانِبِهـا قُعُودٌ
نغُضُّ الطَّرْفَ كالإبِلِ القِماحِ (٦٩)

فقَدْ أُوقِرْنَ مِنْ قُسْطٍ ورَنْدٍ
ومِنْ مِسْكٍ أَحَمَّ ومِنْ سِلاحِ (٧٠)

فطابَتْ رِيحُهُنَّ وهُـنَّ جُـونٌ
جآجِئُهُنَّ في لُجَجٍ مِلاحِ (٧١)

---

(٦٥) القرواء : السفينة العظيمة . تسجد للرياح : تميل معها حيثما أمالتها .

(٦٦) معبدة : مقيرة . السقائف : جمع سقيفة ، وهي لوح السفينة . الدسر : جمع دسار ، وهو خيط من ليف تشد به الواح السفينة . مضبرة : مجتمعة الألواح . رداح : واسعة .

(٦٧) الجناح : الإثم .

(٦٨) المشجرات : السفن .

(٦٩) غض بصره : كفه . القماح : الإبل التي تعاف الماء .

(٧٠) أوقرن : حملن . القسط : عود هندي يجعل في البخور والدواء . الرند : عود طيب الرائحة . الأحم : الأسود .

(٧١) الجون : السود . الجآجىء : جمع جؤجؤ ، وهو الصدر . اللجج : جمع لجة ، وهي معظم الماء . الملاح : جمع ملح ، أي الماء الملح .

وهو يصف رحلةً بحريةً تجاريةً في سفينةٍ ضخمة ، ألواحها مجتمعة مشدود بعضها إلى بعض بالحبال لا بالمسامير ، ومطلية بالقّار . ويقول إنه لم يكد يركبها هو ورفاقه حتى سارت بهم في عرض البحر ، وحتى تعالت الأمواج من حولها واضطربت ، ففزع هو وأصحابه ، وأخذوا يستعيدون ما اقترفوا من الذنوب في هذا الموقف العصيب ، الذي كانت تتقاذفها فيه الأمواج يمنة ويسرة ، وتكاد تحطّمها تحطيماً ، وهم جالسون على أطرافها ، والرعب يملأ أرجاء نفوسهم ، وعيونهم مغمضة لا يفتحونها رهبةً وخوفاً . ولم تزل تسير بهم حتى بلغوا المَرْفأ الذين كانوا يقصدون إليه ، فأرسوا سفينتهم فيه ، وملؤوها بالدواء والبخور والسلاح ، ثم عادوا إلى بلدهم .

ولهذه الأبيات قيمةٌ تاريخيةٌ كبيرةٌ ، لأنها تبيّنُ لنا الطريقةَ التي كان العرب يصنعون بها سفينتهم ، والوسائل التي كانوا يعتمدون عليها في صناعتهم لها فقد كانوا يبنونها من الألواح الخشبية التي كانوا يشدون بعضها إلى بعضٍ بحبال قوية ويُحْكِمونَ رَبْطَها إحكاماً دقيقاً ، ثم يطلونها بالقار ، كما أنها تبيّنُ لنا صلاتهم التجارية ببلاد الهند ، وما كانوا يجلبون منها من البضائع .

وأما أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي « قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله جل وعز » والذي « كان يحكي قصص الأنبياء في شعره » ، كما يقول ابن قتيبة (٧٢) ، فانفرد بوصفه لرحلة نوح عليه السلام ، على ظهر السفينة التي صنعها لينجي بها من آمن من قومه ، وصفاً منه قوله (٧٣) :

تَرَفَّعُ في جَرْيٍ كأنَّ أطيطَـهُ
صريفُ مَحالٍ تَسْتَعيدُ الدَّواليا (٧٤)

(٧٢) الشعر والشعراء ١ : ٤٥٩ .
(٧٣) الحيوان ٢ : ٣٢٣ .
(٧٤) ترفع : تسرع في جريها . الأطيط والصريف : الصوت . المحـال : البكرة العظيمة . الدواليا : جمع دالية ، وهي الدولاب التي يستقى عليها .

على ظَهْرِ جَوْنٍ لمْ يُعَدَّ لراكبٍ
سُراهُ وغَيْمٍ ألْبِسَ الماءَ داجيا (٧٥)

فصارَتْ بهـا أيّامُها ثمَّ سَبْعَـةً
وستَّ ليالٍ دائبـاتٍ غَواطيا (٧٦)

تَشُقُّ بهمْ تَهْوي بأحْسَنِ إمْرَةٍ
كأنَّ عليها هادياً ونَواتيا (٧٧)

وكانَ لهـا الجُوديُّ نهْياً وغايَةً
وأصْبَحَ عنْهُ مَوْجُهُ مُتَراخِيا (٧٨)

وهو يذكرُ سفينةَ نوح التي كانت تجري جرياً سريعاً ، والأصوات تتعالى من حولها لشدةِ جرْيها ، وكأنها الأصوات التي تُسْمَعُ حين تُديرُ البقرةَ الدّولابَ ، ويذكر أيضاً البحر الذي سارت فيه ، وماءه الكثير العميم ، الذي لم يسر فيه راكبٌ من قبل ، والذي كان يغطيه الغيم من كلِّ جانبٍ ، والأيام التي استغرقتها الرحلة ، وكيف كانت تسير مسرعةً في دقة دون أنْ تتَعَثّرَ في سيرها أو تَضِلَّ عن هدَفِها ، وكأنها كان يوَجِّهها قائدٌ ماهر ، وملاّحون لهم خبرَةٌ بركوب البحر ، إلى أنْ بلغت غايتها عند الجودي.

---

(٧٥) جون : اسود ، اراد به البحر لكثرة مائه . دجا الغيم : انتشر وغطى كل شيء .
(٧٦) غطاه : ألبسه ظلمته .
(٧٧) النواتي : جمع نوتي ، وهو الملاح .
(٧٨) النهي : النهاية . الجودي . جبل مطل على جزيرة عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل ، عليه استوت سفينة نوح لما نضب الماء .

(٥)

« تشبيه المهارة الفنية بمهارة الحوت في السباحة »

ورابعُ الموضوعات وأغربها وأصعبها ، وأندرها وأعجبها ، تشبيه المهارة في نظم الشعر والنثر بمهارة الحوت في السباحة . وهو تشبيه لم نعثر عليه إلاّ عند عبيد بن الأبرص الأسدي ، الذي انفرد به من سائر الشعراء الجاهليين وفيه يقول (٧٩) :

سَلِ الشُّعَراءَ هَلْ سَبَحوا كسَبْحي
بُحُورَ الشِّعْرِ أوْ غاصُوا مَغاصي (٨٠)

لِسَاني بالنَّثِيرِ وبالقَوافي
وبالأسْجَاعِ أمْهَرُ في الغِياصِ (٨١)

مِنَ الحُوتِ الذي في لُجِّ بَحْرٍ
يُجيدُ السَّبْحَ في لُجَجِ المغَاصي (٨٢)

إذا ما بَاصَ لاحَ بصَفْحتَيْهِ
وبِيصٌ في المَكَرِّ وفي المَحاصِ (٨٣)

---

(٧٩) ديوانه ص : ٧٦ .
(٨٠) المغاص : مصدر ميمي بمعنى الغوص ، أو مكان الغوص .
(٨١) الغياص : الغوص .
(٨٢) اللج : معظم الماء .
(٨٣) باص : أسرع . الوبيص : البريق . المحاص : الرجوع .

تَلاوَصَ في المَــداصِ مُـــلاوَصاتٍ
لهُ مَلْصى دَواجِنُ بالمِلاّصِ (٨٤)

بَنَــاتُ المــاءِ لَيْسَ لهــا حَياةٌ
إذا أخرَجْتَهُنَّ مِنَ المَدَاصِ (٨٥)

إذا قَبَضَتْ علَيْهِ الكَفُّ حيناً
تَناعَصَ تَحتَها أيَّ انْتِعاصِ (٨٦)

وبَاصَ ولاصَ مِنْ مَلْصى مِلاصٍ
وحوتُ البحْرِ أسْودُ ذو مِلاصِ (٨٧)

كلَوْنِ الماءِ أسْوَدُ ذو قُشُورٍ
نُسِجْنَ تلاحُمَ السَّرْدِ الدّلاصِ (٨٨)

وبجُهْد نستظهر المعاني التي أرادها ، لأنه بنى أبياته بناءً صعباً ، وملأها بأوابد الألفاظ ، وكل كلام صعب ، حتى لتتحول إلى ما يشبه الألغاز والرموز التي تحتاج إلى عراف لكي يفسرها . فهو يفخر على الشعراء والخطباء بتمكنه من القول البليغ ، وتصرفه فيه ، وإجادته له ، مشبّهاً امتلاكه إياه بالحوت

---

(٨٤) تلاوص : نظر يمنة ويسرة. المداص : المكان الذي يذهب فيه ويجيء. الملاوصات : مصدر لاوص مجموعا . الملصى : جمــع مليص ، وهو المولود لغير تمام . دواجن : مقيمة . الملاص : الموضع الذي وضعت فيه الحيتان أولادها .

(٨٥) بنات الماء : الحيتان .

(٨٦) تناعص : تحرك في اليد ليفلت منها .

(٨٧) لاص نظر يمنة ويسرة او حاد . ملاص : جمــع مليص ، وهو الذي ينزلق من الكف ولا تتمكن من القبض عليه . ذو ملاص : ذو انقلاب وتخلص .

(٨٨) السرد : الدرع . الدلاص : اللين البراق .

الذي يعوم في البحر مسرعاً مُنْدفعاً حيناً ،وراجعاً حيناً ثانياً ، ومُرْتَفِعاً على سطح البحر حيناً ثالثاً ، فإذا صفحتاه تلمعان ، وإذا هو إذا حاول أحدٌ أن يمسك به يفلت منه ، وإذا قشوره تبدو وكأنها حلقات الدرع التي يأخذ بعضها ببعض في نظامٍ بديعٍ ، ومنظرٍ رائعٍ .

(٦)

« موضوعات مختلفة »

ولم تقتصر إفادة الشاعر الجاهلي من بيئة البحر ، واستغلاله لهـا على الموضوعات السابقة ، فقد ذكر سواحله وتنازع العشائر عليها ، والطرق التي كانت تمتد معها ، كما شبه الجيش في كثرته وتلاحقه بكثرة أمواج البحر وتلاحقهـا ، وذكر أيضاً الضريبـة التي كان يدفعها الملاّحون حين يمرون ببعض المرافيء ، ويبيعون بضائعهم فيها . ومن ذلك قول المثقب العبدي يصف ناقته وسيرها على دروب كانت تحاذي شاطيء البحر (٨٩) :

على طُرُقٍ عنـدَ اليَراعَةِ تـارَةً
تُوازي شَرِيمَ البحرِ وهو قَعيدُها(٩٠)

وقول بشر بن أبي حازم الأسدي يهدد بني عامر التميميين ، ويسألهم أن يتركوا أرض بني أسد التي تقع على شاطيء البحر باليمامة ، لأنهم أصحابها ، وإلاّ فإنهم موقعون بهم هزيمة نكراء ، على نحو ما أوقعوا بهم يوم النسار (٩٢) :

(٨٩) ديوانه ص : ٢١ .
(٩٠) شريم البحر : خليج ينشعب منه . اليراعة : ارض بعينها . قعيدها : لا يفارقها .
(٩١) ديوانه ص : ١٩ .

دَعُوا مَنْبِتَ السَّيْفَيْنِ إنَّهُما لنا
إذا مُضَرُ الحمراءُ شُبَّتْ حُرُوبُها (٩٢)

وقول متمم بن نويرة الذي يشبه فيه فرسان قومه في كثرتهم وتوالي كتائبهم ، بأمواج البحر واتصالها (٩٣) :

فَما فَتِئُوا حتّى رَأَوْنا كأنّنا
معَ الصُّبْحِ آذيٌّ مِنَ الموْجِ مُزْبِدُ (٩٤)

وقول يزيد بن الحذاق العبدي يَسْتَعْلي على النعمان بن المنذر ، الذي كان يأخذ من التجار الضرائب الباهظة ، ويظلمهم فيها ظلماً شديداً ، مذكّراً له بقوة قبيلته ومقدرتها على قهره (٩٥) :

ألا ابنَ المُعَلّى خِلْتَنا وحَسِبْتَنا
صَرَارِيَّ نُعطي الماكسِينَ مُكُوسا (٩٦)

(٧)

« تشبيه كرم الممدوح بالنهر الفياض »

ويتصل بوصف البحر بعض الاتصال تشبيه الشعراء الجاهليين ممدوحيهم

---

(٩٢) السيفين : ساحلا البحر . مضر الحمراء : سميت بذلك لقبّة من أدم وهبها نزار لابنه مضر .
(٩٣) العقد الفريد ٥ : ١٩٩ .
(٩٤) الآذي : الموج .
(٩٥) المفضليات ص : ٢٩٨ .
(٩٦) الصراري : الملاحون . الماكس : الجابي .

في كثرة النوال والعطاء بالنهر في حال فيضانه ، وامتلائه بالماء . وهو تشبيه ألمّ به كثير منهم ، مع تفصيلهم فيه ، وتنقيحهم له ، وربما كان الشعراء الذين أكثروا من التردد على الغساسنة بالشام ، والوفود على المناذرة في العراق ، هم الذين ابتكروا هذا التشبيه ، ثم نقله عنهم الشعراء الآخرون ، ومنه قول المسيب بن علس يمدح القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي (٩٧) :

ولأنْتَ أجْوَدُ مِنْ خَلِيجٍ مُفْعَمٍ
مُتَراكِمِ الآذيِّ ذي دُفّاعِ (٩٨)

وكأنَّ بُلْقَ الخَيْلِ في حافاتِه
يَرْمي بِهِنَّ دَوالِيَ الزُّرّاعِ (٩٩)

وقول أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة (١٠٠) :

وما خَليجٌ مِنَ المَرُّوتِ ذُو حَدَبٍ
يرْمي الضَّريرَ بخُشْبِ الطَّلْحِ والضّالِ (١٠١)

يَوْماً بأجْوَدَ منهُ حِينَ تَسْأَلُهُ
ولا مُغِبٌّ بتَرْجٍ بينَ أشْبالِ (١٠٢)

---

(٩٧) المفضليات ص ٦٣ .
(٩٨) مفعم : ممتلىء زاخر . الآذي : الموج . ذي دفاع : يدفع الماء بعضه بعضا لكثرته .
(٩٩) الدوالي : جمع دالية ، وهي آلة للسقي . شبه أمواج الخليج بخيل بلق ، لأن الموجة اذا ارتفعت كان ظهرها ابيض ، فاذا انقلبت اسود بطنها .
(١٠٠) ديوانه ص ١٠٥ .
(١٠١) المروت : ارض فيها مسايل كثيرة . الحدب : ارتفاع الماء وتعاليه في النهر . الضرير : جانب الوادي . الطلح والضال : نوعنان من الشجر .
(١٠٢) المغب : الأسد يفترس يوما ويترك يوما . ترج : موضع في بيشة وهي مأسدة في بلاد خثعم .

وقول بشر بن أبي خازم الأسدي يمدح أوس بن أبي حارثة الطائي (١٠٣) :

ولو جَــارَاكَ أبْيَضُ مُتْلَئِــبٌّ
قُرَى نَبَطِ السَّوَادِ له عِيالُ (١٠٤)

تَهِفُ يَــدَاكَ مِنْ هَــذا وهَذَا
وتُغْرَفُ من جوانِبِه السِّجالُ (١٠٥)

لأصْبَحَتِ السَّفِــينُ مُخَوِّيَـــاتٍ
على القُذُفاتِ ليس لها بِلالُ

وقول النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر (١٠٦) :

فَمَا الفُراتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لَهُ
تَرْمي غَوارِبُهُ العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ (١٠٧)

يَمُــدُّهُ كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ
فيه رُكامٌ من اليَنْبوتِ والخَضَدِ (١٠٨)

---

(١٠٣) ديوانه ص : ١٦٩ .

(١٠٤) ابيض متلئب : يريد نهر الفرات المطرد المستقيم . النبط : جيل من الناس كانوا سكان العراق ، وكانوا يعملون في الزراعة . السواد : سواد العراق سمى بذلك لخضرته .

(١٠٥) تهف : تأخذ في سرعة وخفة . السجال : جمع سجل ، وهو الدلو الضخمة .

(١٠٦) مختار الشعر الجاهلي ص : ١٥٤ .

(١٠٧) العبر : الناحية والجانب . الغوارب : الأمواج . الزبد : ما يطرحه الوادي اذا اضطرب ماؤه .

(١٠٨) مترع : مملوء . اللجب : الذي له صوت . الركام : الحطام المتكاثف . الينبوت : نوع من الشجر . الخضد : ما تكسر .

يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ المَلاّحُ مُعْتَصِماً
بالخَيْزُرانَةِ بَعْدَ الأيْنِ والنَّجَدِ (١٠٩)

يَوْماً بأجْوَدَ منْهُ سَيْبَ نافِلَةٍ
ولا يحولُ عَطاءُ اليَوْمِ دونَ غَدِ (١١٠)

وأما الأعشى ميمون بن قيس فأكثر من استخدام هذا التشبيه في مدائحه ، مع إطالته له ، وتأنيه فيه (١١١) ونختار له منه قوله في مديح هوذة بن علي الحنفي (١١٢) :

ومَا مُجاوِرُ هِيتٍ إنْ عَرَضْتَ لَهُ
قد كاد يَسمو إلى الجُرْفينِ واطّلعا (١١٣)

يجيشُ طُوفـانُهُ إذْ عَبَّ محتَفِلاً
يكادُ يعلو رُبَى الجُرفَيْنِ مُطَّلِعا (١١٤)

طابَتْ لَـهُ الرّيحُ فامتَدَّتْ غوارِبُه
تَرَى حوالِبَهُ منْ موْجِهِ تَرَعا (١١٥)

---

(١٠٩) الخيزرانة : السكان : وهو ذنب السفينة . الأين : الإعياء . النجد : العرق والكرب .
(١١٠) السيب : العطاء . النافلة : الزيادة . يحول : يمنع .
(١١١) انظر ديوانه ص : ٢٩ ، ومعجم البلدان ١ : ٤٨٢ .
(١١٢) ديوانه ص : ١٠٩ .
(١١٣) هيت : بلد بالعراق . مجاور هيت : نهر دجلة . الجرف : المكان الذي يأخذه السيل ويجرفه . اطلع : صعد .
(١١٤) جاش : اضطرب .. عب النهر : ارتفع وكثر موجه . احتفل : امتلأ . الربى : المرتفعات .
(١١٥) الغوارب : أعالي الأمواج . حوالب النهر : الفروع التي تمده وترفده. ترعا : مملوءا .

يَوْمــاً بأجْوَدَ مِنْــهُ حينَ تسألُهُ
إذْ ضَنَّ ذو المالِ بالإعطاء أوخَدَعا(١١٦)

وقوله في مديح قيس بن معد يكرب (١١٧) :

وَمَــــا مُزْبِدٌ مِنْ خَلِيجِ الفُـــرا
تِ جَوْنٌ غوارِبُهُ تَلْتَطِمْ (١١٨)

يَكُبُّ الخَلِيَّــــةَ ذاتَ القِـــلا
عِ قدْ كادَ جُؤْجُؤُها ينحطِمْ (١١٩)

تكأكَأ مَــلاّحُهــا وَسْطَهَـــا
مِنَ الخَوْفِ كَوْثَلَها يلتزِمْ (١٢٠)

بــأجْوَدَ مِنْـــهُ بمــاعُونِهِ
إذا ما سماؤُهُمُ لمْ تَغِمْ (١٢١)

وواضح أن صورة هذا التشبيه تكاد تكون معادةً مكرورةً عند الشعراء الذين استشهدنا بأمثلة من أشعارهم ، كما أن ألفاظه وقوالبه متماثلةً عند أكثرهم ، سوى ما نراه من أن المسيب بن علس ، وأوس بن حجر قد اختصرا وصفَ النهر في وقت فيضانه ، ولم يطيلا فيه ، لأنهما متقدمان في الزمان على الشعراء الباقين ، فكانا يُجرّبان ويحاولان إرساء أصول هذا التشبيه وتقاليده . في حين أفاض سائر الشعراء في وصف النهر ، ودقّقوا في إظهار امتلائه

(١١٦) ضن : بخل .
(١١٧) ديوانه ص : ٣٩ .
(١١٨) الجون : الأسود .
(١١٩) الخلية : السفينة الضخمة . القلاع : الشراع . الجؤجؤ : الصدر.
(١٢٠) تكأكأ : تمايل . كوثل السفينة : مؤخرتها .
(١٢١) الماعون : العطاء . اذا ما سماؤهم لم تغم : أي في وقت الجدب .

بالماء ، وما جلّب معه من الحطام والركام ، وأثر اضطرابه على السفن والملاحين ، لكي يظهروا أريحيّة ممدوحيهم ، وعطاءهم الغامر ، وكرمهم الذي يفوق في كثرته واتصاله مياه أعظم الأنهار . ويتضح ذلك بجلاء عند النابغة الذبياني ، والأعشى ، الذي استطاع أنْ يتخفف من صعوبة الأسلوب ، وغرابة التراكيب التي تناوب عليها الشعراء ورسّخوها بموسيقاه التي تروع السامع بخفتها ورشاقتها .

تلك هي أهم الموضوعات التي استغل فيها الشعراء الجاهليون بيئة البحر ، واستوحوا منها بعض معانيهم وصورهم ، وتحدثوا فيها عن طبيعته ، وعن اصطناع العرب له في أسباب معاشهم ، سواء في ركوبهم له ، أو في استخراجهم اللؤلؤ منه . وهي معان وصورٌ لم تكن قليلةً ، بل كانت كثيرةً ، كما أنها لم تكن مقصورة على طائفةٍ من الشعراء ، بل كانت عامةً بينهم ، مما يدل على أنهم كانوا يعرفونه معرفة وثيقةً دقيقةً ، وأنهم كانوا يستلهمونه في فنهم استلهاماً تعدّدت صُوَرُهُ ، واختلفتْ مظاهرُهُ .

الفصل الثاني

«في العصر الاموي»

(١)

« وصف الرحلة النهرية »

كنا نفترضُ افتراضاً أن يستكثر الشعراء الأمويون من موضوعات وصف البحر ، وأن يطوروا القديم منها ، وأن يضيفوا إليها موضوعاتٍ جديدةً ، فقد أرسى لهم الشعراء الجاهليون أصول هذا الوصف ، ونوَّعوا فيها تنويعاً كثيراً ، إذ شبَّهوا في بعضها الظُّعنَ المرتحلةَ بالسفن ، وشبّهوا في بعضها المحبوبة بالدرة مع اتساعهم واستطرادهم إلى الحديث عن الغياصة والغاصة ، ووصفوا في غيرها الرحلة النهرية التجارية أو التاريخية ، وشبَّهوا في بعضها التَّمكُّنَ من قَوْلِ الشعر بمهارة الحوت في العوم والسباحة في البحر ، ووازنوا في غيرها بين النهر والممدوح ، وفَضَّلوا الثاني على الأول في كثرة النوال ، وألمُّوا في سواها بمعانٍ وتشبيهات أخرى ، كما أن العرب لم يعودوا يقيمون في الجزيرة العربية ، ولم يَعُدْ أفرادٌ قلائل منهم يرحلون منها إلى الشام والعراق ، فقد رحلت عشائر كثيرة من قبائلهم إلى هذين البلدين ، وأقامت فيهما إقامةً مستمرةً ، ورحلت أيضاً عشائر أخرى إلى مصر وإلى بلاد المغرب العربي ، واستوطنت بها استيطاناً دائماً ، كما أصبح للدولة الأموية أسطولٌ بحريٌّ حربيٌّ يهاجم أسطول الروم بالبحر الأبيض ، ويشتبك معه في معاركَ بحريةٍ عنيفةٍ (١) ، مما كان يؤذن بأن يكثر الشعراء الأمويون من موضوعات

---

(١) الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ص : ٧ وما بعدها .

وصف البحر ، لأنَّ أصولها كانت مستقرَّةً ومعروفةً ، ولأن البيئة الجديدة التي انساح فيها العرب كانت حدودها تمتد مسافات طويلةً على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، كما أنها كانت غنيةً بأنهارها العظيمة ، غير أن ذلك لم يُحْدِث تغييراً كبيراً في وصفهم للبحر ، إذ ظلت محاولاتهم مقصورة على وصف الرحلة النهرية ، وعلى وصف الخوف من ركوب البحر . ولكن الرحلة النهرية التي وصفوها لم تكن تجارية ، ولا تاريخية ، وإنما كانت تصويراً لارتحال الظُّعُن من مكان إلى مكان ، في نهر النيل أو في أنهار العراق ، والمظنون أن عبيد الله بن قيس الرقيات هو أول من طَوَّرَ هذا الوصف ونقلهاً من مرتبة التشبيه الشكلي التقليدي إلى تشخيص رحلة الظّعن في المراكب بنهر النيل ، إذ نراه يقول (٢) :

غَدَوْا مِنْ دَوْرَجِ الكَرْيُو نِ حيثُ سَفِينُهُمْ حِزَقُ (٣)
كما يَغْدُو نَشَاصٌ مِنْ سَحابِ الصَّيْفِ مُنْطَلِقُ (٤)
فلمّا أنْ عَلَوْنَ النِّيلَ والرَّاياتُ تَخْتَفِقُ (٥)
رَأَيْتُ الجَوْهَرَ الحَكَمِيَّ والدِّيباجَ يأتَلِقُ (٦)
وخَزَّ السُّوسِ والإضْرِيجَ فَصَّلَ بَيْنَهُ السَّرَقُ (٧)
وخَمْلَ الأرْجُوانِ على السَّفِينِ كأنّهُ العَلَقُ (٨)
سَفائِنُ غيرُ مُقْلَعَةٍ إلى حُلْوانَ تَسْتَبِقُ (٩)

(٢) ديوانه ص : ١٥٨ .
(٣) الكريون : نهر ينشعب من نهر النيل . حزق : جماعات .
(٤) النشاص : سحاب ابيض رقيق .
(٥) تختفق : تضطرب وترفرف .
(٦) الحكمي : نسبة الى عبد العزيز بن مروان بن الحكم . يأتلق : يبرق
(٧) الخز : الحرير . السوس : بلدة بخورستان . الإضريج : الخز الأحمر السرق : شقق الحرير الأبيض .
(٨) الخمل : ما غلظ من الحرير كالقطيفة . الأرجوان : الثياب الحمراء العلق : الدم .
(٩) غير مقلعة : ليس عليها قلوع اي شرع .

وهو يصف نساء عبد العزيز بن مروان والي مصر ، وسفنهن التي تشبه في بياضها السحب البيضاء التي تتراءى في السماء بالصيف ، وكيف أنها أقلعت من الكريون إلى حلوان ، فأخذت راياتها ترفرف ، وقد استقرت النساء بداخلها ، وارتدين الثياب الفاخرة من كلّ لَوْنٍ ، وتَزَيَّنَّ بالجواهر النفيسة .

وحَذَا الأخطل التغلبي حذوه ، فصور نساء قومه وهنّ يَنتقِلْنَ من مكانٍ كن ينزلن به ، ويتصيفن فيه إلى موطنهن الأصلي ، فقال (١٠) :

كأنّ الرَّيْطَ فَوْقَ ظِبــاءِ فَلْجٍ
غَداةَ لبِسْنَ للبَيْنِ الثيابا (١١)

ففَـارَقْنَ الخَلِيـطَ على سَفِينٍ
يَشُقُّ بهنَّ أمواجــاً صِعابا (١٢)

تَرَى المَــلاّحَ مُحْتَجِزاً بِلِيفٍ
يَؤُمُّ بهــنَّ آجــاماً وغابــا (١٣)

إذا التُّبّــانُ قَلَصَ عَنْ مُشِيحٍ
صَدَفْنَ ولم يُرِدْنَ لهُ عِتابا (١٤)

---

(١٠) شعره ص : ٥٢ .
(١١) الريط : جمع ريطة ، وهي الملاءة . الظباء : جمع ظبي ، وهو الغزال . فلج : واد بين البصرة وحمى ضرية . البين : المفارقة .
(١٢) الخليط : القوم الذين امرهم واحد .
(١٣) محتجزا : شادا وسطه . يؤم : يقصد . الغاب : جمع غابة ، وهي الوهدة من الأرض ذات الشجر المتكاثف . الآجام : جمع أجم ، وهو الحصن وكل بيت مربع مسطح .
(١٤) التبان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة . قلص : ارتفع . المشيح : الجاد الحريص . صدفن : عدلن .

يَعُجُّ المـــاءُ تَحْتَ مُسَخَّراتٍ
يَصُكُّ القَارَ والخُشُبَ الصِّلابا (١٥)

يَعُمْنَ عـــلى كَلاكِلِهِـــنَّ فيهِ
ولو يُزْجِى إليهِ الفيلُ هـــابا (١٦)

وإمّـــا اضطرّهُنَّ إلى مَضِيقٍ
ومَوْجُ الماءِ يَطَّرِدُ الحبَـــابا (١٧)

تَتَـــابعُ صِرْمَـــةِ الوَحْدِيِّ تأوي
لِأُولاهـــا إذا الـــرّاعي أهابا(١٨)

دَجَنَّ بحيثُ تَنْتَسِخُ المَطـــايا
فَـــلا بَقّـــاً يَخَفْنَ ولا ذُبابا (١٩)

إذا ألْقَوْا مَـــراسِيهِنَّ حَلّـــوا
دَبِيبَ السَّبْيِ يَبْتَدِرُ النِّقابا (٢٠)

فهو يتحدث عن مُباينةِ نساءِ من عشيرته له بعد أن قَضَيْنَ الصيف

---

(١٥) يعج : تسمع له صوتا لشدة تدفقــه . المسخرات : السفن ، من سخرت السفينة اذا أطاعت وجرت وطاب لها السير. يصك : يضرب ضربا شديدا .
(١٦) الكلكل : الصدر . يزجي : يدفع . هاب : خاف وجبن .
(١٧) يطرد : يتوالى . الحباب : طرائق الماء التي تطفو كأنها الفقاقيع .
(١٨) الصرمة : القطعة من الإبل . الوحدي : عشيرة من تغلب كانت تنزل وحدها . أهاب : زجر .
(١٩) دجن : نزلن وأقمن . الانتساغ : التباعد والتفرق في المرعى . المطايا: الإبل .
(٢٠) دبّ : مشى على هينته . السبي : الأسرى . النقاب : جمع نقب ، وهو الطريق الضيق في الجبل .

قريباً منه ، حيث كان يختلف إليهن ، ويلتقي بهن . فلما انتهت فترة الصيف عدن إلى بلدهن في سفينة عظيمة سارت في نهر مضطرب الأمواج ، وكان ملاح قوي حذر فوقها يوجهها ويقودها ، وكانت الرياح العاصفة تطير سرواله القصيرَ الذي كان يستر به عورته ، فكن يغضضن أبصارهن عنه. ولم تزل تجري والمياه ترتفع أمواجها ، وتلتطم بجوانبها ، حتى وصلت إلى الثغر ، فألقى الملاحون مراسيها ، ونزلن منها .

ولا بدّ أن نسجل للأخطل أنه يتفوق على ابن قيس الرقيات في تصوير رحلة الظّعُنِ النهرية . فقد تتبعها من بدايتها إلى نهايتها ، وعني بذكرِ هيئة الملاح ، وما كان يرتدي من الثياب ، وما كان يقوم به من توجيه السفينة وقيادتها ، ووصف أيضاً هيئةَ ماءِ النهر الذي كانت السفينة تسير فيه ، وأمواجه العالية التي كانت تضربَ أسفلها وجوانبها ، كما حددَ غاية الرحلة ، وكيف ثبّتَ الملاحون السفينة بإلقاء مراسيها فاستقرت ، ونزلت النساء منها .

ولا بد أن نسجل أنه تخففَ إلى أبعدِ حد من الاستمداد من صندوق التشبيهات الصحراوي البدوي،الذي استمد منه الشعراء الجاهليون وخالفوهم من الشعراء العباسيين تشبيهات كثيرة ، ليُبيّنوا شكلَ السفن ، وسرعتها ، أما هو فلم يأخذ منه إلاّ تشبيهاً واحداً ، وهو تشبيه طرائق الماء التي كانت تعلو سطح النهر ، والتي كان يدفعها الموج فتتوالى في صفوفٍ مستقيمةٍ بتتابع جماعة من الإبل التي تتلاحق أخراها بأولاها إذا زَجَرَها الراعي .

وإنما هيأ له ذلك أنه نَظَرَ في محاولات سابقيه واعتمد عليها . ويحس الإنسانُ إحساساً غامضاً أنه تأثر تأثراً ما بوصف بشر بن أبي خازم الأسدي للرحلة النهرية التجارية التي استشهدنا بها من قبل،ومما يقوي هذا الإحساس أنه كان كثير الرجوع إلى قصائد الشعراء الجاهليين،طويلَ التّوفّرِ عليها،

شديدَ المحاكاة لها ، كثيرَ الأخذِ منها ، كما هيَّأ له ذلك أيضاً أنه كان يتأنّى في صُنْعِ قصائده، وما يزالُ بها يُنقِّحُها ويهذِّبُها حتى تخرجَ مستويةً في الجودة . ولعل ذلك هو الذي جَعَلَ الأصمعي يصفه بأنّه عَبْدٌ من عبيد الشعر (٢١) .

(٢)

« وصف الخوف من ركوب البحر للغزو »

وأما وَصْفُ الخَوْفِ من ركوبِ البحر للغزو في السفن ، فلم نظفر منه إلاّ بقطعةٍ واحدة ، إذ يُرْوَى أنَّ هشام بن عبد الملك استعمل الأسودَ بن بلال المحاربي على بحر الشام ، فقَدَم عليه أعرابي من قومه فَفَرَضَ له ، وأغزاه البحر ، فلما أصابت الأعرابي الأهوال ، قال (٢٢) :

أقولُ وقَدْ لاجَّ السّفينُ مُلَجِّجاً
وقَدْ بعُدَتْ بعْدَ التقرُّبِ صُورُ (٢٣)

وقَدْ عَصَفَتْ رِيحٌ ولِلْمَوْجِ قاصفٌ
ولِلْبَحْرِ مِنْ تحْتِ السّفِينِ هَدِيرُ

ألا لَيْتَ أجْري والعَطَاءَ صَفَا لهمْ
وحَظّي حَطُوطٌ في الزِّمامِ وكُورُ(٢٤)

---

(٢١) العمدة ١ : ١٣٣ .
(٢٢) معجم البلدان ٣ : ٢٧٣ .
(٢٣) لاج السفين : خاض . الملجج : البحر المضطرب الموج .
(٢٤) الكور : الرحل وأداته . الزمام : خيط يشد في البرة ثم يشد في طرفه المقود . الحظ : النصيب . الحطوط : الناقةالنجيبةالسريعة.

فلِلّهِ رأيٌ قَادَني لِسَفِينَةٍ
وأخضَرَ مَوّارِ السَّرارِ يَمُورُ (٢٥)

نَرَى مَتْنَهُ سَهْلاً إذا الرِّيحُ أقْلَعَتْ
وإنْ عَصَفَتْ فالسَّهلُ منهُ وُعُورُ (٢٦)

فَيا ابنَ بِلالٍ للضّلالِ دعَوْتَني
وما كانَ مِثْلي في الضَّلالِ يَسِيرُ

لئِنْ وقَعَتْ رِجْلايَ في الأرضِ مَرَّةً
وحانَ لأصحابِ السّفِينِ وُكُورُ (٢٧)

وسُلِّمْتُ مِنْ مَوْجٍ كأنَّ مُتُونَهُ
حِراءٌ بَدَتْ أركانُهُ وثَبيرُ (٢٨)

ليُعْتَرَضَنَّ اسْمي لَدى العَرْضِ خِلْفَةً
وذلكَ إنْ كانَ الإيابُ يَسيرُ (٢٩)

وقَدْ كانَ في حَوْلِ الشَّرِبَّةِ مَقعَدٌ
لذيذٌ وعيشٌ بالحديثِ غَرَيرُ (٣٠)

---

(٢٥) الموار : المضطرب : يمور : يتحرك . السّرار هنا : وسط البحر .
(٢٦) المتن : الظهر وهو هنا السطح . الوعور : جمع وعر ، وهو المكان الغليظ ضد السهل .
(٢٧) وكور : رجوع .
(٢٨) المتون : جمع متن ، وهو الظهر . حراء وثبير : جبلان بالقرب من مكة .
(٢٩) ليعترضن اسمي : أخذه من قولهم : أعترض القائد جنده ، اذ نظر اليهم واحدا واحدا . والعرض : التفتيش . وخلفة : مرة بعد مرة. والإياب : الرجوع .
(٣٠) الشربة : الطريقة السوداء في الأرض كانها خط لاستقامة شجرها وتكاثفه ، وهي موضع بنجد بين وادي الرمة ووادي الجريب .

ألا ليتَ شعري هل أقولنْ لفتيةٍ
وقد حانَ من شمسِ النهارِ ذُرورُ (٣١)

دعُوا العيسَ تُدني للشَّربَّةِ قافلاً
لهُ بينَ أمواجِ البحارِ وكُورُ (٣٢)

ويَصْدُقُ هذا الأعرابيُّ ما شاع من أن الأعراب كانوا يفزعون أشد الفزع من ركوب البحر والسفر فيه ، إذ لم تكد السفينة التي حملته تسير في البحر ، وتفارق الثغر الذي أبحر منه ، ولم يكد يرى أمواج البحر الهائجة العاتية ، ويسمع أصواتها العالية ، حتى ملأ عليه الخوف أنحاء نفسه ، فإذا هو يزهد في العطاء الذي فرض له، ويرغب عن الراتب الذي أجري عليه ، وإذا هو يندم أشد الندم لموافقته على الانضمام إلى الجيش ، والغزو في البحر المضطرب الهائج الذي كان يطمئن فيه بعض الاطمئنان حين تطيب الريح ، وتهدأ الأمواج ، ثم لا يلبث أن يخاف حين تشتد الريح ، وتتعالى الأمواج . وإذا هو يعتب أعظم العتب على ابن قبيلته الذي أغراه وأغزاه . وإذا هو يتمنّى ، ويطيل في التمني أن ينجوَ من أخطار الأمواج المضطربة التي كانت تبدو له وكأنها الجبال المنهارة المتهافتة ، وأنّ تطأ قدماه الأرض . وإذا هو يحن إلى موطنه بالبادية ، حيث كان يحيا حياة هادئةً وادعةً ، ويودّ لو عادَ واستأنف حياته بالبادية ، وأسرح الإبل ، وخرَج بها إلى المرعى في الصباح .

وهذان هما الموضوعان اللذان وصف فيهما الشعراء الأمويون النهر والبحر ، أما أولهما فهو تطويرٌ لتشبيه الظُّعُنِ بالسفن ، الذي كان شائعاً عند

---

(٣١) ذرور : مصدر ذرت الشمس اذا طلعت وظهرت .
(٣٢) القافل : العائد .

شعراء الجاهلية ، ومحاولةٌ للتجديد في أجزاء القصيدة العربية ، والاستعاضة عن تصوير رحلة الظُّعُنِ على ظهور الإبل والنوق في القفار بتصويرها وهي راحلةً في السفن بالأنهار . وأما ثانيهما فهو جديدٌ كل الجدة ، لأن أحداً من الشعراء الجاهليين والأمويين لم يصف قبل هذا الأعرابي فَزَعه من ركوبه البحر للغزو .

الفَصْلُ الثَّالِثُ

«في العصر العباسي الاول»

(١)

« الاقتصار على وصف الرحلة النهرية »

من الغريب حقاً أنّ الشعراء العباسيين الأوائل أهملوا كل المحاولات التي سَبَقَ للشعراء الجاهليين والأمويين أنْ وصفوا البحر والنهر فيها ، والتي نَوَّعوا في موضوعاتها ومعانيها وصورها تنويعاً كثيراً ، وأنهم لم يُعْجَبوا منها إلاّ بموضوعٍ واحدٍ ،هو وَصْفُ الرحلة النهرية التي صوروا فيها رحلتهم هم إلى ممدوحيهم ، أوَ رِحْلَةَ ممدوحيهم في أنهار العراق للتَّنزُّهِ . وربما كان هذا الموضوع أقرب إلى ما كانوا يبتغونه من التجديد في شكل القصيدة العربية وأجزائها ، ولذلك فإنهم ألحُّوا عليه ، وأكثروا من النظم فيه ، لأنهم نفذوا منه إلى التخفف من تصوير الرحلة في الصحراء على ظهور الإبل والنوق ، وما قطعت من قفارِ الأرض ودُروبها الوعرة ، وما مرت به من مناهلها المهجورة ، ذلك التصوير الذي كان جزءاً مُهِمّاً من القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، والشعر الأموي ، والذي تمسكوا هم به تمسكاً نحَا فيه بعضهم نَحْوَ معارضةِ النماذج القديمة معارضةً تكاد تكون جاهليةً في معانيها ومبانيها ، ونَحَا فيه بعضُهم نحْو تجديده تجديداً يقوم على الإيجاز فيه وتركيزه ، أو على ابتداع المعاني الطريفة ، واختراع الصور النادرة التي يمكن أن ينفرد بها عن سابقيه ، كما نَحَوْا هم أنفسهم نحو إلْغائه والاستغناء عنه بوصف الرحلة النهرية ، وهو وصف نُمَيِّزُ فيه بوضوح بين ثلاث مراحل : مرحلة البَعْثِ والإحياء ،ومَرْحلةِ التَّطْويرِ والتَّهْذيبِ ، ومَرْحلةِ النُّضْجِ والكمالَ

(٢)

« مرحلة البعث والإحياء »

أما مرحلة البَعْثِ والإحياء فمن أشهر شعرائها بشار بن برد ، وأبو الشيص الخزاعي ، وأبو نواس ، فقد وصف كل منهم ارتحاله إلى الممدوح في السفينة بالنهر ، أو خروج ممدوحه فيها للنزهة ، وصفاً سادت فيه التشبيهات والصور البدوية ، التي تتضح في نعتهم السفن بالأوصاف التي تُنْعَتُ بها الإبل والنوق والخيل ، وفي تشبيههم السفينة بالناقة ، أو موازنتهم بينهما ، أو تشبيههم لسرعتها بسرعة النعام ، أو تشبيههم لصوت الأمواج وهي تصطدم بها بصوت الرياح التي تنخرق بين الوِهادِ والكثبان وتزمجر فيها . والراجح أن هذه الظاهرة تعود إلى ثلاثة أسباب : أولها أنهم كانوا يحاكون محاولات الشعراء السابقين ، ويُحْتَذُونَ على النماذج القديمة الجاهلية والأموية . وثانيها أنهم لم يكونوا يجدون في اللغة ألفاظاً ومصطلحات كثيرةً محددةَ المعاني والدلالات للسفينة والنهر والبحر . وثالثها أن وَصْفَ الصحراء كان له سلطانٌ قويّ على أخيلتهم ، كما كانوا يحفظون من ألفاظه وتراكيبه وصوره شيئاً كثيراً ، في حين كانوا لا يعرفون من أوصاف السفينة والنهر والبحر إلاّ شيئاً قليلاً نادراً . فكانوا لذلك كلما أعوزتهم الحاجة ، ولم تَقْوَ ملكاتهم على الخَلْقِ والإبداع ، وهم يصفون السفينة ، يعودون إلى « المعجم الصحراوي » ويستعيرون من ألفاظه وصوره .

ونحن نسوق كل ما عثرنا عليه من محاولاتهم — على تكرار بعضها لبعضٍ في المعاني والصور — لأنها تنطق بخصائص وصفهم للرحلة النهرية . وأول ما نختاره منها قول بشار بن برد[١] من قصيدته[٢] البائية[٣] التي مدح فيها يزيد بن عمر

ابن هبيرة الفزاري ، والي العراق لمروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، وهو يجري على هذا النمط (١) :

وملْعَبِ النّونِ يُسرَى بَطْنُــهُ
مِنْ ظَهْرِهِ أخْضَرَ مُسْتَصْعِبِ (٢)
غضْبانَ إنْ تأخُذْ عليهِ الصَّبــا
يُفْحِشْ علىالبُوصيّ أو يَصْخَبِ (٣)
كـأنَّ أصْواتـاً بـأرْجـائِهِ
مِنْ جُنْدُبٍ فاضَ إلى جُنْدُبِ (٤)
ركِبْتُ في أهْـوالِـهِ ثَيِّباً
إلَيْكَ أو عَذْراءَ لمْ تُرْكَبِ (٥)
لمّا تَيَمّمْتُ عَلى ظَهْرِها
لمجْلِسٍ في بَطْنِها الحَوْشَبِ (٦)
هَيّأتُ فيها حينَ خَيّسْتُها
مِنْ حالِكِ اللّوْنِ ومِنْ أصهَبِ (٧)
فأصْبَحَتْ جارِيَةً بَطْنُها
مَلآنُ مِنْ شَتّى فلمْ تُضْرَبِ (٨)

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٧ .
(٢) النون : الحوت . ملعب النون : نهر الفرات . مستصعب : صعب صفة لملعب .
(٣) البوصي : الملاح أو نوع من السفن .
(٤) الجندب : الجراد .
(٥) الثيب : السفينة المستعملة . العذراء : السفينة الجديدة .
(٦) الحوشب : العظيم المنتفخ .
(٧) خيس : هيأ وأعد . الحالك : الأسود . الأصهب : الأشقر .
(٨) بطنها ملآن من شتى : أراد أنواع الراكبين وما يتبع كل راكب .

لا تَشتكي الأيْنَ إذا ما انتحَتْ

تُهْدَى بهـادٍ بَعْدَها قُلَّبِ (٩)

عـاري الذّراعَيْنِ لتحْزِيزها

منْ مَسربٍ غارَ إلى مَسْرَبِ (١٠)

إذا انْجَلى عنهـا بتَيّـارِهِ

وارْفَضَّ آلُ الشّرَفِ الأحْدَبِ (١١)

ذَكَرْتُ منْ هِقْلٍ غَـداً خاضِباً

أو هِقَلَةٍ رَبْداءَ لمْ تَخْضِبِ (١٢)

تَصِرُّ أحيـاناً بسُكّانهـا

صَرِيرَ بـابِ الدّارِ في المِذنَبِ (١٣)

بمِثْلِهـا يُجْتـازُ في مِثْلِـهِ

إنْ جَدَّ جَـدَّتْ ثمَّ لمْ تَلْعَبِ

دُعْمُوصُ نَهرٍ أنْشَبَتْ وَسْطَهُ

إنْ تَنْعَبِ الرّيحُ لها تَنْعَبِ (١٤)

---

(٩) الأين : الإعياء . الهادي القلب : الملاح العارف المجرب للأمور .

(١٠) التحزيز : المبالغة في الحفظ والصيانة . غـار : ذهب . المسرب : المذهب والمجرى .

(١١) ارفض : تفرق . الآل : سراب أول النهار . الشرف : الجبل المرتفع. وأراد بآل الشرف : نواحي الموج العالي كالجبل . الأحـدب : من حدب الموج وهو حدوره في صبب .

(١٢) الهقل : الفتى من النعام . الخاضب : احمر الرجلين، لأن ذكر النعام تحمر رجلاه آخر الربيع ، فشبهوه بالخاضب بالحناء . الهقلة : انثى النعام . الربداء : الغبراء .

(١٣) السكان : مؤخر السفينـة . المذنب : شاطىء النهـر . الصرير : الصوت المرتفع .

(١٤) الدعموص : دودة سوداء تكون في الماء القليل. النعيب : صوت الريح.

إلى إمــــامِ النّـــاسِ وجّهتُها
تَجْري على غارٍ مِنَ الطُّحْلُبِ (١٥)

فهو يصف نهر الفرات وحيتانه وأمواجه الهائجة ودويها وعبثها بالسفينة الواسعة الضخمة التي ركبها إلى ممدوحه . ويصف ما فرَشَ بها من بُسطٍ مختلفةِ الألوانِ ، ليجلس عليها ، كما يصف حركتها وسيرها ، فقد بدأت رحلتها مسرعةً ، وكان الملاّح يرشدها في حذرٍ شديدٍ حتى وصلت إلى غايتها .

وواضحٌ أنه أقام وصفه للنهر والسفينة على الألفاظ والأوصاف البدوية الصحراوية ، إذ شبه صَخَبَ الأمواج المتلاطمة بأصوات الجراد ، كما جعل السفينة ثَيِّباً أو عذراء ، ووصفها كذلك بأنها لا تُجهدُها الرحلةُ الطويلةُ الشاقة ، ولا تُضرَبُ لتسرع في سيرها ، كما تكل الناقة وترهق فتضرب لتجدَّ في عدوها ، وشبّهها أيضاً في اندفاعها بالظليم أو النعامة .

ولصعوبة أسلوبه ، وبنائه له بناءً أعرابياً مُمْعِناً في الأعرابية ، ولكثرة ما استعار من أوصافِ الإبلِ والخيل ، وما اقتبس من أوصاف الصحراء ، قد يظن الدارس إذا لم يُدقِّق النظر أنه إنما كان يصور رحلةً صحراوية ، لا رحلةً نهرية ، وأنه كان يصف ناقةً لا سفينةً .

ولا تظُنَنَّ أن هذه الخصائص المعنوية والفنية إنما تتحقق في وصفه للرحلة النهرية في قصائده الأموية ، بسبب تَقَدُّمها ، فهي ظاهرة عامة تشيع في كل أوصافه للرحلة النهرية ، سواء كانت من نتاج الفترة الأموية أو من نتاج الفترة العباسية ، وهو فيها جميعاً بدوي الخيال ، يكرر المعاني ويُرَجِّعُها ،

---

(١٥) غار : اسم فاعل من غراه اذا لزق به وغطاه .

ويبدىء ويعيد في كلماتها وتراكيبها وصورها الصحراوية . وأصدق شاهد على ذلك هذه القطعة الطويلة التي تحدث فيها عن رحلته النهرية إلى الخليفة المهدي . وهي تنساب على هذا النحو(١٦) :

وقُرِّبَتْ لمسيرٍ منكَ يومئـــذ
مَراكبٌ مِنْكَ لمْ تُولَدْ ولم تَلِدِ

يَغْلي بهنَّ طَريــقٌ مـــا به أثَرٌ
في مستوى ما به حَزْنٌ ولا جَدَدُ(١٧)

لا في السّماءِ ولا في الأرضِ مَسلَكُها
ولا تقومُ ولا تَمْشي ولا تَخِدُ(١٨)

ولا يَذُقْنَ أكالاً ما بَقِينَ ولا
يشْرَبْنَ ماءَ وهُنَّ الشُّرَّعُ الوُرُدُ(١٩)

جُونٌ مُجَلَّلَةٌ قُعْسٌ مُجَرْشَعَـةٌ
ما بات يُرْمِضُها أينٌ ولا خَضَدُ (٢٠)

تُلْوى الأزمَّةُ في أذنابِها وبهـــا
في السَّيرِ يُعدَلُ إن جارَتْ فتَقتصِدُ(٢١)

---

(١٦) ديوانه ٢ : ٢٨٣ .
(١٧) يغلي : من الغليان اي يضطرب . الحزن : ما غلظ من الأرض . الجدد : الأرض المستوية .
(١٨) وخدت الناقة : اسرعت .
(١٩) الأكال : الطعام . الشرع : الداخلة في الماء . الورد : الواردة الماء .
(٢٠) الجون : السود . القعس : المرتفعة الأعناق . المجرشعة : عظيمة الصدر منتفخة الجنبين .
(٢١) تلوى الأزمة : تربط الحبال في مؤخرتها . يعدل ان جارت فتقتصد: اي بتلك الحبال ، يتحكم في السفينة ، فيهذا سيرها أن اسرعت .

مِنْ كُلِّ مُقْرَبَــةٍ لِلسَّيْرِ مُبْعَدَةٍ
جُوفٍ تجَمَّعَ منها الجُؤْجُؤُ الأجُدُ (٢٢)

مِنْ سَبْعَةٍ فإذا أنشأتَ تَحْسَبُهـا
وفـاكها كُمَّــلاً في كفِّكَ العددُ

السَّمْرُ والنَّجْرُ والنَّحازُ يَقْرَعُها
والفَقْرُ والقِيرُ والألواحُ والعَمَدُ (٢٣)

فَقَدْ وَفَتْ ولهـا في وَفْقِها عَلَمٌ
مثلُ السَّحابةِ في أقرابها زَبَدُ (٢٤)

في نشرِهِ بَعدَ طَيٍّ طِيبُ جاريةٍ
جاءتْ تَهادَى بهم مِن بعدما هَجَدوا (٢٥)

فثَوَّرَتْ بَقَراً مـا مِثْلَهُمْ بَقَرٌ
إن قمتَ قاموا وإن قلتَ اقعدوا قعدوا (٢٦)

فبـاتَ عَرْشُكَ فَوْقَ المـاءِ يحمِلُهُ
بَحْرٌ تَلاطَمَ فيهِ المَوْجُ والزَّبَدُ

---

(٢٢) المقربة : السفن المدناة الى الشاطىء . المبعدة : السريعة . الجوف : الواسعة البطن . الجؤجؤ : الصدر . الأجد : القوي .
(٢٣) السمر : وضع المسامير . النجر : قطع الخشب وتسويته . النحاز : الذي يدق . الفقر : صنع فقار السفينة، وهو اللوح الغليظ الجامع لدفتيها . القير : الزفت . العمد : الصواري .
(٢٤) الوفق : الاتفاق والتلاؤم . الأقراب : الخواصر . العلم : الشراع .
(٢٥) الطيب : طيب السير . أي في نشر الشراع بعد طي طيب سير السفينة.
(٢٦) ثورت : هيجت . البقر : طائر من طيور البحر .

والرّيحُ مُرْسَلَةٌ والمــاءُ مُنْصَلِتٌ
وأنتَ مرتفقٌ والسّيرُ مُنجَرِدُ(٢٧)

فقد أطال في وصف هذه الرحلة النهرية ، إذ ألمّ بالطريق المائية التي سارت فيها السفينة ، وفصّلَ القول فيها ، ثم أخذ في وصف السفينة نفسها ، فبيّنَ لونها والثياب التي كانت مبسوطة بداخلها ، وعرَضَ لدفتها وحبالها التي كان النوتي يقبض عليها ، ويُوَجِّهها بها ، للاحتفاظ بتوازنها ، وأشار إلى شكلها ، وكيف أنها كانت واسعة الوسط جوفاءه ، دقيقةَ الصَّدْرِ قويته ، وكيف أنها كانت تتألف من ألواحٍ طليت بالقار ، وجمعت بالمسامير ، وكيف أنها كانت تقوم فوقها الصواري ، وعليها الأشرعة البيض ، وبيّنَ أيضاً هيئة النهر الذي كان يحملها ، فقد كان عاتي الأمواج ، كثير الزبد ، متدفق الماء ، وكانت الرياح الشديدة تهب عليه ، فتزيده اضطراباً إلى اضطرابٍ .

ويظهر بوضوح أنه لم يستحدث أيَّ لفظ في وصفه للسفينة ، وأنه إنما استعار كل أوصافه لها من « معجم أوصاف الخيل » ، كما راح يوازن بينها وبين الفرس ، فهي لم تولد ، ولم تلد ، وهي تسير في طريقٍ سهلة مستوية ليست في الأرض ولا في السماء ، بل في عرض النهر ، طريقٍ ليست كطريق الصحراء التي تعدو فيها الخيل ، والتي تبدو عليها آثار حوافرها . وهي تختلف عن الخيل في أنها لا تنهض من مجثم ، ولا تسرع في عدو ، ولا تأكل ولا تشرب ، ولا تتعب ولا تشتكي ، ولا تعرق من طول السير ، وشدة الإعياء . ومضى في موازنته بينهما مبيّناً أن السفينة وهي تشق الماء تهيج الطيور المائية ، تماماً كما يثيرُ الفرسُ بقرَ الوحش في الصحراء ، وهو يندفع وراءها ، ملاحقاً لها ، ومطارداً إياها .

---

(٢٧) منصلت : ماض . السير المنجرد : المتصل .

وله قطعة ثالثة من قصيدته الرائية التي مدح بها الخليفة المهدي ، صَوَّرَ فيها رحلته النهرية إليه ، تصويراً كرر فيه المعاني السابقة ، وأكثر من استعارة أوصاف الخيل والإبل ، وألحَّ على المقارنة بينها وبينَ السفينة ، فهو يقول فيها (٢٨) :

وعَذْراءَ لا تَجْري بلحْمٍ ولا دمٍ
بعيدةِ شكْوى الأيْنِ مُلجَمةِ الدَّبْرِ (٢٩)

إذا طَعَنَتْ فيها القَبولُ تشَمَّصَتْ
بفُرسانها لا في سُهولٍ ولا وَعْرِ (٣٠)

وإنْ قَصَدَتْ دَلّتْ على مُتَنَصّبٍ
ذَليلِ القَرى لا شيء يَفْري كما تَفْري (٣١)

تُلاعِبُ نينـــانَ البُحورِ ورُبَّما
رأيْتَ نفوسَ القَوْمِ مِن جَرْيها تَجْري (٣٢)

تَحَمَّلْتُ منهـا صاحِبيَّ ومِنْصَفي
تَزِفُّ زَفيفَ الهَيْقِ في البلدِ القَفْرِ (٣٣)

---

(٢٨) ديوانه ٣ : ٢٨٠ . والموازنة ٢ : ٣٠٩ .

(٢٩) العذراء : السفينة الجديدة التي لم تركب من قبل . الأين : الإعياء . الدبر : مؤخرة السفينة . ملجمة الدبر : يريد أن مؤخرتها مربوطة بحبل تهدى به كما يربط الزمام في وجه البعير ليقاد به . وفي الديوان : ملحمة الدبر . وقد ذهب الطاهر بن عاشور الى أن الدبر هو قشر جلد الحيوان من اثر جرح أو احتكاك . وأطلقه بشار هنا على اخداش لوح السفينة ، فانه يطلى بالقار ليصح . فجعل ذلك إلحاما .

(٣٠) القبول : ريح الصبا ، وهي رخاء السفن . تشمصت : نفرت واسرعت .

(٣١) قصدت : مشت مشيا خفيفا . دلت : سارت سيرة الفتاة المتدللة . المتنصب : النهر . القرى : الظهر . يفري : يشق .

(٣٢) النينان : الحيتان .

(٣٣) المنصف : الوصيف. الزفيف : السير السريع. الهيق : ذكر النعام .

سَمَوْنـا إلى المَهْدِيّ قَصْداً وإنّما
قطَعْنا بها أمْواجَ بَحْرٍ إلى بَحْرِ

فهو يصف ركوبه السفينة ، وكيف أن ريح الصبا الهينة كانت تسوقها سوقاً ليّناً خفيفاً ، فتجري مسرعةً ثم لا تلبث أن تتهادى على وجه الماء ، وكيف أن الحيتان كانت تطيف بها ، والناس فوقها خائفون مذعورون ، وهو جالس بينهم ، وبجانبه صاحباه ووصيفه .

وظاهرٌ أنه وازنَ بين السفينة والناقة ، وأنه استمد ألفاظه من « معجم أوصاف الإبل والنعام » . فقد ردّدَ أن السفينة لا تتكوّن مما تتكوّنُ منه الناقة ، ولا تسير فيما تسير فيه ، ولا تتألم ولا تتعب ، وإنما تتألف من ألواح لا لحمَ عليها ، ولا دمَ فيها . وتجري في وسط النهر . وشاكلَ أيضاً بين زمام الناقة الذي تُقادُ به ، وبين دفّة السفينة التي تُرْشَدُ بها . وشبّهَ سيرها الهادىء ، والصوت المنبعث من ارتطام الماء بجوانبها باندفاع ذكر النعام في أول حركته . ومع ذلك فإن الأمدي أعجِبَ بهذه الأبيات ، وأثنى عليها ، وقرر أنّ وصف بشار للسفينة فيها هو الجيد النادر (٣٤) .

وصفوة القول في تصوير بشار للسفينة وللرحلة النهرية أنه تصوير يقوم على نَسْخ الألفاظ التي توصَفُ بها الإبل والخيل ، ويعتمد على الصور البدوية . أما السفينة فإنه لم يستطع — مع كثرة جهوده الأموية والعباسية ، وتعدد محاولات سابقيه ومعاصريه من الشعراء — أن يضَعَ لها ألفاظاً يصح أن تُنْعَتَ بها نعتاً حقيقياً ، لا مجازياً. فقد جعل هَمّهُ أن يستعير أوصاف الخيل والإبل، كما أعاد وأبدأ في معانٍ محدودة . وكرّر ألفاظاً وتراكيبَ معدودة .

على أنّ وَصْفَ أبي الشيص للسفينة وللرحلة النهرية أعرق بداوة ، وأشد

(٣٤) الموازنة ٢ : ٣٠٩ .

تأثراً بجو الصحراء ، وأكثرُ مراعاةً للناقة، وأوسع استعارةً لما تُنْعَتُ به من وصْفِ بشار ، مع أنه متأخرٌ عنه بما يقرب من ثلاثين عاماً ، إذ نراه يقول في قصيدته البائية التي مدح بها عقبة بن الأشعث (٣٥) :

وبَحْرٍ يَحارُ الطَرْفُ فيه قطَعْتُهُ
بمهنوءةٍ مِنْ غيرِ عُرٍّ ولا جَرَبْ (٣٦)
مُلاحَكَةِ الأَضْلاعِ مَحْبُوكَةِ القَرَى
مُداخلةِ الدَّأياتِ بالقارِ والخَشَبْ (٣٧)
موثَّقَةِ الألْواحِ لمْ يُدْمِ مَتْنَهَا
ولا صفحتيها عقْدُ رَحْلٍ ولا قَتَبْ (٣٨)
عَرِيضَةِ زَوْرِ الصَّدْرِ دَهْماء رَسْلَةٍ
سِنادٍ خليعِ الرَّأس مزمومةِ الذَّنَبْ (٣٩)
جمُوحِ الصَّلا مَوَّارَةِ الصَّدْرِ جَسْرَةٍ
تكادُ من الإغراق في السَّيرِ تَلتهِبْ (٤٠)

---

(٣٥) طبقات ابن المعتز ص : ٨٣ .
(٣٦) المهنوءة : المطلية بالقطران . العر : داء يتمعط منه وبر الابل .
(٣٧) ملاحكة : ملتئمة التئاما شديدا . القرى : الظهر . الدايات : الواح هيكل السفينة .
(٣٨) موثقة : محكمة . المتن : الظهر . القتب : رحل صغير على قدر سنام البعير .
(٣٩) زور الصدر : وسطه . الدهماء : السوداء من صفات الإبل والخيل. الرسلة : الناقة السهلة السير . السناد : الناقة القوية . خليع الرأس : لا رسن لها .
(٤٠) الصلوان : مكتنفا الذنب من الناقة . موارة : نشيطة . الجسرة : الناقة الماضية . الإغراق : المبالغة .

مُجَفَّرَةِ الجَنْبَيْنِ جَوْفاءَ جَوْنَـــةٍ
نبيلَةِ مَجْرى العَرْضِ في ظَهرِها حَدَبْ(٤١)

مُقَتَّلَةٍ لا تَشتكي الأَيْنَ والوَجَى
ولا تشتكي عضَّ النُّسوعِ ولا الدَّأبْ(٤٢)

ولم يُدْمَ مِنْ جَذْبِ الخِشَاشَةِ أَنْفُها
ولا شأنها وسْمُ المَناسِمِ والنَّقَبْ (٤٣)

مُرَقَّقَةِ الأَخْفَــافِ صُمٍّ عِظامُها
شديدةِ طيِّ الصُّلْبِ معصوبةِ العصَبْ (٤٤)

يَشُقُّ حَبَــابَ الماءِ حَدُّ جِرانِها
إذا ما تفرَّى عن مناكبها الحَبَبْ (٤٥)

إذا اعتَلَجتْ والرِّيحُ في بطنِ لُجَّةٍ
رَأيتَ عَجاجَ الموتِ من حولها يَثِبْ(٤٦)

---

(٤١) مجفرة : واسعة . جوفاء : فارغة . الجونة : السوداء .

(٤٢) مقتلة : مذللة مروضة . الأين : الإعياء . الوجى : الحفاء . النسوع: جمع نسع وهو سير يشد به الرجل . الدأب : الحال والشأن ، مأخوذ من داب في العمل اذا جد وتعب . وفي طبقات ابن المعتز : معلمة ، والتصحيح من ديوان أبي تمام ٢ : ٣٩٨ .

(٤٣) الخشاشة : الحلقة التي توضع في انف البعير . الوسم : الكي . المناسم : جمع منسم ، وهو طرف خف البعير . والنقب : رقة الأخفاف .

(٤٤) صم : شديدة . الصلب : الظهر . معصوبة : مشدودة . العصب : عصب الانسان والدابة الذي يشد بين المفاصل .

(٤٥) حباب الماء : معظمه . الجران : باطن العنق . تفرى : انفرج وتطاير . المنكب : مجتمع عظم العضد والكتف . الحبب : طرائق الماء وفقاعاته التي تطفو على سطحه .

(٤٦) اعتلجت : سارت والتطمت بالماء . اللجة : معظم الماء حيث لا يدرك قعره . العجاج : الغبار .

وكأنما تَدَرّبَ نفسه لكي يُصَوِّرَ كلَّ دقائق السفينة وأجزائها ، تماماً كما كان الشعراء الجاهليون يقفون وقفات متأنيةً بإزاء نوقهم ، ويصفون كل أعضائها . فهو مَعْنيٌّ عنايةً بالغةً بوصف تلك السفينة وصفاً لم يترك معه شيئاً منها إلاّ ذكره وأتى عليه . فهو يصفُ جسمها وشكلها ، وكيف أنها تتألف من ألواحٍ جُمِّعَ بعضُها إلى بعض ، وأحكم جَمْعُها إحكاماً دقيقاً ، ثم طليت بالقطران ، وكيف أن ظهرها محدودب ملتئم ، وكيف أن مقدمتها تبدأ رفيعة ، ثم يأخذ وسطها في الاتساع ، ولا تلبث مؤخرتها أن تعود إلى الدقة ، وكيف أنها تجري في عرض النهر جرياناً حتى لتكاد أن تطير طيراناً ، شاقةً الماء شقاً ، فإذا حباته تتطايرُ عن جنبيها تطايراً ، وإذا هي تضطربُ اضطراباً ملأ نفسه خوفاً وفزعاً .

ونستطيع أن نَحْكُمَ في كثيرٍ من اليسر أنه لم يأت بجديد في وصفه للسفينة ، فقد عمد إلى الألفاظ التي توصف بها النوق ووصفها بها ، بل إن الكثرة المطلقة من وصفه لها أخذَ ألفاظَهُ من أوصاف النوق . وأيضاً فإنه مضى يُقابلُ بينها وبين الناقة مفضِّلاً الأولى على الثانية ، لأنها لا تتعب من طول السير ، ولا تشكو الإرهاق ، ولا يظهر على سطحها أي أثر من آثار شد الرحل على ظهر الناقة ، أو ربط حباله على بطنها ، كما أنها ليس لها أنف حتى تجرحه البرة ، ولا خف حتى يزرق أو يكوى بالنار . وإذا أضفنا إلى ذلك أنه نَقَلَ كل أوصاف الناقة ووصف السفينة على المجاز بها ، مع ما رانَ على أسلوبه من الصعوبة ، وعلى ألفاظه من الغرابة ، بحيث كنا بحاجة إلى استخراج معانيها ، ظَنَنَّا بعد قراءتنا السريعة للأبيات أنه إنما كان يصف ناقةً لا سفينةً ، وأنه شاعر جاهلي لا شاعرٌ عباسي .

حتى أبو نواس — مع ما عرف عنه من ثورته على التقاليد ، وسعيه إلى

التجديد — لم يتمكن من التخلص من آثار وصف الصحراء والناقة ، وهو يصف حراقات الخليفة الأمين ، على نحو ما يظهر في قوله (٤٧) :

سَخَّرَ اللهُ للأمينِ مَطايا
لمْ تُسَخَّرْ لصاحِبِ المِحْرابِ (٤٨)

فإذا ما رِكابُهُ سِرْنَ بَرّاً
سارَ في الماءِ راكباً لَيْثَ غابِ (٤٩)

أسَداً باسِطاً ذِراعَيْهِ يَعْدُو
أهْرَتَ الشِّدْقِ كالِحَ الأنْيابِ (٥٠)

لا يُعانيهِ باللِّجامِ ولا السَّوْطِ
ولا غَمْزِ رِجْلِهِ في الرِّكابِ (٥١)

عَجِبَ النّاسُ إذ رَأَوْهُ على صُو
رَةِ لَيْثٍ يَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ

سَبَّحُوا إذْ رَأَوْكَ سِرْتَ عَلَيْهِ
كيْفَ لَوْ أبْصَرُوكَ فَوْقَ العُقابِ

ذاتُ زَوْرٍ ومِنْسَرٍ وجناحينِ تشقُّ العُبابَ بعدَ العُبابِ (٥٢)
تَسبِقُ الطَّيْرَ في السَّماء إذا ما استعجلوها بجَيْئةٍ وَذهابِ

---

(٤٧) ديوانه ص : ٤١٤ .
(٤٨) صاحب المحراب : هو النبي سليمان بن داود .
(٤٩) الركاب : الإبل التي يسار عليها ، واحدها راحلة ولا واحد لها من لفظها .
(٥٠) أهرت الشدق : واسعة .
(٥١) الغمز : الضرب .
(٥٢) الزور : الصدر . عباب الماء : معظمه .

فهو يتحدث عن السفن التي استحدثها الأمين ، وأخذ يتنزه بها في نهر دجلة . وهي سفن ذات أشكال عديدة عجيبة ، إذ كان منها ما هو على صورة أسد باسط ذراعيه ، فاتح فمه بحيث تبدو أنيابه ، مما أذهل الناس وهالهم ، كما كان منها ما يتخذ شكل العقاب برقبته ومنقاره وجناحيه . وهي سفن هينة لينة لا تُتعِبُ راكبها ، ولا تحتاج إلى غمزٍ أو ركلٍ ، بل تنْساب مسرعةً في كثيرٍ من البشر .

وعلى نحو ما قارن سابقوه بين السفينة والناقة نراه يحذو حذوهم ، ويُراعي في وصفه للسفينة بعض ما توصف به الناقة ، وتحتاج إليه ، ذلك أنه لم يُسَمِّ السفينة باسمها الحقيقي ، بل سماها مطية ، ثم راح يقول : إنها تسير دون حاجةٍ إلى لجامٍ يسيطر عليها به إذا نفرت ، أو سوطٍ تضربُ به لتسرع كلما أبطأت ، أو غمز بالرجل لتحث به على العَدْوِ كلما تراخت .

(٣)

« مرحلة التطوير والتهذيب »

وأما مرحلة التطوير والتهذيب فيمثلها مسلم بن الوليد ، وأبو تمام ، إذ نرى وصفهما للرحلة النهرية مُسْهَباً يُراعيان فيه مراعاةً واضحة أنْ يستكملا أوصافَ النهر ، ويُحدّدا الثغرَ الذي ركبا منه ، والثغر الذي نزلا فيه ، وأوصاف السفينة من شكلها إلى لونها ، وعمل ملاّحها ورفقه بها في أثناء قيادته لها ، مع الإلمام ببعض التشبيهات الصحراوية ، التي لا تبلغ في كثرتها مبلغ إلمام بشارٍ وأبي الشيص الخزاعي ، وأبي نواس بها ، واعتمادهم اعتماداً كبيراً عليها ، بحيث لا يكاد يخلو بيت من وصفهم منها ، يشهد على

ذلك أبيات مسلم بن الوليد التي أعجب القدماء بها ، وأثنوا عليها ، والتي جرت مجرى الأمثال السائرة (٥٣) لطرافتها وروعتها ودقتها ، وهو يقول فيها (٥٤) :

ومُلْتَطِمِ الأمْواجِ يَرْمي عُبابُهُ
بجَرْجَرةِ الآذي للعِبْرِ فالعِبْرِ (٥٥)

مُطَعَّمَةٍ حيتانُهُ مـا يُغِبُّها
مآكلُ زادٍ من غَريقٍ ومِنْ كَسْرِ (٥٦)

إذا اعتَنَقَتْ فيه الجَنوبُ تكفأتْ
جَواريهِ أو قامتْ معَ الرِّيحِ لا تجري (٥٧)

كأنَّ مَدَبَّ المَـوْجِ في جَنَباتِها
مَدَبُّ الصَّبا بينَ الوِعاثِ مِنَ العُفْرِ (٥٨)

كَشَفْتُ أهاويلَ الدُّجى عَنْ مَهولهِ
بجاريةٍ مَحْمُولَةٍ حاملٍ بِكْرِ (٥٩)

لطَمْتُ بخَدَّيْها الحَبَـابةَ فأصْبَحَتْ
موَقَّفَةَ الدَّاياتِ مرتومَةَ النَّحْرِ (٦٠)

---

(٥٣) طبقات ابن المعتز ص : ٢٣٧ .
(٥٤) ديوانه ص : ١٠٥ .
(٥٥) العباب : معظم الماء . الجرجرة : صوت الماء . الآذي : الموج . العبر : جانب النهر .
(٥٦) مطعمة : مشبعة . يغبها : يفوتها .
(٥٧) اعتنقت : اضطربت . تكفأت : انقلبت أعاليها فصارت أسافل .
(٥٨) مدب الموج : مضربه . الوعاث : الليِّنة . العفر : الكثبان الحمر .
(٥٩) كشفت أهاويل الدجى عن مهوله : كشفت أهوال الليـل عن هول البحر . الجارية البكر : السفينة الجديدة .
(٦٠) موقفة الدايات : مخططة الظهر . مرتومة النحر : بيضاء الصدر .

إذا أقبلَتْ راعَتْ بقُنَّةِ قَرْهَبٍ
وإن أدبرَتْ راقتْ بقادمَتي نَسْرِ (٦١)

تَجافَى بِها النَّوتيُّ حتّى كأنَّما
يَسيرُ من الإشفاقِ في جبَلٍ وَعْرِ (٦٢)

تخلّجُ عنْ وَجْهِ الحَبابِ كما انْثَنَتْ
مُخبَّأةٌ من كَسْرِ سِتْرٍ إلى سِتْرِ (٦٣)

أطلّتْ بمجْدافَيْنِ يَعْتَوِرانِهـا
وقَوَّمَها كَبحُ اللِّجامِ مِنَ الدَّبْرِ (٦٤)

فحامَتْ قَليلاً ثُمَّ مرَّتْ كأنّهـا
عُقابٌ تدلَّتْ من هَواءٍ إلى وَكْرِ (٦٥)

أنَـافَ بِهـادِيها وَمَدَّ زِمـامَهـا
شَديدُ عِلاجِ الكفِّ مُعْتَمِلِ الظّهْرِ (٦٦)

إذا ما عَصَتْ أرْخى الجَريرَ لِرأسِها
فملَّكها عِصْيانَها وهيَ لا تَدْري (٦٧)

---

(٦١) قنة القرهب : رابي الثور الوحشي . وقادمتي نسر : جناحيه ، ويعني بهما المقاذف .
(٦٢) تجافى : تنحى . النوتي : البحار .
(٦٣) تنخلج : تتنحى . وجه الحباب : الموضع الذي يقل فيه الماء .
(٦٤) الدبر : المؤخرة .
(٦٥) حامت : استدارت . الوكر : العش .
(٦٦) اناف بهادي السفينة : اشرف بعنقها أي مقدمتها .
(٦٧) الجرير : الحبل .

كأنَّ الصَّبا تَحكي بها حينَ واجَهَتْ

نَسيمَ الصَّبا مَشْيَ العَرُوسِ إلى الخِدْرِ(٦٨)

يَمَمْنا بهـا لَيْلَ التَّمَامِ لأرْبَعٍ

فجاءتْ لِستٍّ قد بَقينَ من الشّهرِ (٦٩)

فَمَا بَلَغَتْ حتّى اطّلاحِ خَفيرِها

وحتّى أتتْ لوْنَ اللّحاءِ منَ القِشْرِ(٧٠)

وحتّى عَـلاها المَوْجُ في جَنَباتِها

بأرْدِيَةٍ مِنْ نَسجِ طُحْلبةٍ خُضْرِ(٧١)

رَمَتْ بالكَرَى أهوالَها عَن عيونِهِمْ

فباتتْ أهاويلُ السّرى بهِمُ تسري(٧٢)

تَؤُمُّ مَحَـلَّ الرَّاغبينَ وحيْثُ لا

تُذادُ إذا حلَّتْ به أرْحُلُ السَّفْرِ(٧٣)

رَكِبْنا إليه البَحْرَ في مُؤَخِراتِهِ

فأوْفَتْ بنا منْ بَعدِ بحرٍ إلى بَحْرِ(٧٤)

فهو يصف السفينة التي حملته إلى الممدوح ، والتي سارت في البحر الهائج

---

(٦٨) تحكي بها : اي في جريها وسيرها . الخدر : البيت الذي تستتر فيه العروس .

(٦٩) ليل التمام : اطول الليالي .

(٧٠) الاطلاح : الكلال .

(٧١) الطحلب : الاعشاب الخضراء .

(٧٢) رمت بالكرى : فضت الكرى عن عيونهم .

(٧٣) تؤم : تقصد . تذاد : تدفع .

(٧٤) مؤخراته : اواخر ركوبه .

الزاخر بالحيتان التي تعيش على لحوم الغرقى ممن تتحطم سفنهم . ويصف أيضاً الرياح العاصفة التي كانت تلعب بسفينتهم ، وكيف أن الملاّح هدّأ من سيرها حتى جنّبها الصخور ، ولم تلبث أن اندفعت بأقصى سرعتها ، وما زالوا بالبحر عشرة أيام تغير معها لون السفينة ، واستبدّ بهم الخوف إلى أن وصلوا إلى الممدوح .

والحق أنّ مُسْلماً يمثل المرحلة الانتقالية في وصف الرحلة النهرية ، فقد صورها قبله بشار وأبو الشيص الخزاعي ، وأبو نواس ، وصورها بعده دعبل الخزاعي ، والحسين بن الضحاك . أما بشار وأبو الشيص الخزاعي وأبو نواس فكانوا يحاكون ويقلدون ، ولذلك غلبت الأوصاف البدوية ، والتشبيهات الصحراوية على تصويرهم للرحلة النهرية ، إذ راعوا فيه النوق والإبل والخيل مراعاةً شديدةً ، بل إنهم وازنوا بين الطرفين موازنة بيّنوا فيها فضائل كل منهما . وأما دعبل الخزاعي ، والحسين بن الضحاك . فتخلّصا أكبر التخلص من تلك المظاهر البدوية ، لأنهما كانا يعيشان بأخرة من العصر العباسي الأول ، ولأن العُمْرَ امتدّ بهما إلى العصر العباسي الثانيّ ، ولأنهما أفادا من محاولاتِ سابقيهم .

ويقف مسلم بن الوليد بين هاتين الطائفتين ، فنحن نرى وصفه للرحلة النهرية مُفَصّلاً طويلاً ، ونراه يُعْنى فيه بوصف النهر وأمواجه وحيتانه ، والرياح التي كانت تهب عليه ، وتعبث بالسفن الراسية فيه ، كما عُنِيَ أيضاً بإظهار لون السفينة الأبيض وصدرها وشكله ، ومجدافيها ومؤخرتها ، والملاّح الذي كان يسيرها ، وحركاتها بين هادئة وسريعة ، والرحلة التي قامت بها من أولها إلى آخرها ، وما استغرقته من الوقت ، وهو عشرة أيام ، أتعبت الملاّح وغيّرَتْ لونَ سفينته من أبيضَ إلى أخضر ، لأن الأعشاب المائية علقت بجوانبها ، كذلك عُنِيَ بتبيان حال المسافرين وخوفهم .

ولكنه على تفضيله وتألقه في بعض الصور ، كتشبيه السفينة ، وهي تميل عن المواضع التي يقل ماؤها ، ويظهر قاعها ، بالجارية التي تخرج متثنية متثاقلة من بيت إلى بيت ، وكتشبيه لها ، وهي تتهادى في عرض النهر ، بالعروس التي تتأنى في سيرها إلى خدرها — لم يتمكن من التخلص من كل الصور الصحراوية ، بل تأثر بها ، واستمد منها ، فقد شبّه الأمواج ، وهي تضرب جوانب السفينة ، وقطرات الماء تتناثر منها ، بالرياح التي تهب على الكثبان اللينة ، وتطير ذرات رمالها ، وشبّه صدر السفينة برأس الثور الوحشي ، ومجاذيفها بجناحي النسر ، ورفق الملاّح بها ، وهو يوجهها في المناطق الصخرية قريبة الغور ، بتريّث من يسير في شعب من شعاب الجبال الوعرة ، وشبّه الملاّح ، وهو ممسك بدفتها يُقوّم اعوجاجَها بالفارس الممسك بلجام الفرس ، وحبالها التي تهدي بها بزمام البعير .

وأفاض أبو تمام في الحديث عن الخَشَب الذي تُصْنَعُ منه السفينة ، مُتتبِّعاً له منذ أن زرعت أشجاره في الأرض ، وترعرعت واشتدت أعوادها ، إلى أن صلبت وجفّتْ وصلحتْ لأن تتخذ منها السفن ، مُحاولاً الإتحاف بشيء جديد في وصفه لرحلته النهرية إلى ممدوحه محمد بن عبد الملك الزيات ، تلك التي يقول فيها (٧٥) :

حَمَلَتْ رَجَايَ إليكَ بِنْتُ حديقةٍ
غَلباءُ لمْ تُلْقَحْ لفحْلٍ مُقْرِفِ (٧٦)

---

(٧٥) ديوانه ٢ : ٣٩٦ .

(٧٦) بنت الحديقة : السفينة لأنها من خشب الحديقة ، وجعل الحديقة مؤنثة ، والسماء فحلها لأنها تلقحها بمطرها . الغلباء : الواسعة المتكاثفة الأشجار .

نُتِجَتْ وقد حوَتِ الهُنَيْدَةَ وابتَنَتْ
في شَطْرِها وتبوَّعَتْ في النَّيِّفِ (٧٧)

فأتَتْ محلِّي وهْيَ حَمْلُ بَنَاتِها
تسْري بقائمتَيْ خَريقٍ حَرْجَفِ (٧٨)

فاعْتامَهَا ذُو خِبْرَةٍ بفحولِها
نَدْسٌ بجِبْلَةِ خَلْقِها متلَطِّفِ (٧٩)

صَارَتْ إليَّ بجُؤْجُؤٍ ذي مَيْعَةٍ
قَدَمٍ تدِفُّ بهِ وعجزٍ مِصْرَفِ (٨٠)

تنسَلُّ في لُجَجٍ حكَتْ أغْمارَها
فِعلَ المحمَّدِ في الزَّمانِ المُجْحِفِ (٨١)

ثمَّ اجْتَنَتْ شِلْوِي فصِرْتُ جَنِينَها
متمكّناً بقَرارِ بَطْنٍ مُسْدِفِ (٨٢)

---

(٧٧) الهنيدة : مائة سنة : ابتنت في شطرها : بنت قوتها في الخمسين سنة الأولى . تبوعت : مدت باعها فيما أناف على ذلك ، أي بسقت وطالت .

(٧٨) حمل بناتها : ليس فيها شيء غير جنسها وهو الخشب ، لأنها كانت تجري على الماء فارغة . القائمتان : المجدافان . الخريق الحرجف : الريح الشديدة الهبوب .

(٧٩) اعتامها : اختارها . الندس : الفطين . الجبلة : الطبيعة .

(٨٠) جؤجؤ ذو ميعة : صدر واسع . القدم : مقدمتها .

(٨١) اللجة : معظم الماء . الأغمار : جمع غمر ، وهو الماء الكثير . المجحف : الشديد .

(٨٢) اجتنت : احتوت وشملت . الشلو : العضو . الجنين : الولد في البطن . بطن متسدف : مظلم .

فمتى تعثرْ بالرفاق ذكرتُه
فيمرُّ نحي قطعَ ليلٍ أغضفِ (٨٣)

فأجاءها بعدَ المخاضِ طلوقُها
بمراهقِ السنينِ كهلٍ أهيفِ (٨٤)

عوجاءُ تستلبُ الزمامَ وتحتذي
عوجاً يُجِدْنَ لها استلابِ النفنفِ (٨٥)

أشرتْ بطيِّ النيِّ في أثباجها
فهوتْ كثعبانِ الصفا المتخوِّفِ (٨٦)

أمتَّكَ والشيطانُ يرهبُ ظلَّها
فأتتكَ وهيَ تفوقُ حلمَ الاحنفِ (٨٧)

فهو يصور السفينة التي ركبها ، وما كانت تتألف منه من ألواح الأشجار التي زرعت ، واعتني بها . وظلت تُتَعَهَّدُ مدةً طويلةً حتى اشتدت وأصبحت صالحة لأن تصنع السفن منها ، ثم تحول يصف قيادة الملاّح لها ، حتى وصلت إلى الشاطىء الذي كان يقف عليه ليركبها ، وكيف أنها بدأت رحلتها ،

---

(٨٣) الرفاق : سكانها . تعثر : تنكسر بجبل يصادفها . ذكرته : الهاء للممدوح .
(٨٤) أجاءها : ارساها . الطلوق : وجع الولادة . المراهق : هو أبو تمام . السنين : سن الشباب ، وسن الشيخ . الأهيف : ليس بعظيم ، وهو من صفات الشجعان .
(٨٥) تحتذي : تجعل المجاذيف كالحذاء لها . العوج : المجاذيف . النفنف: الهواء .
(٨٦) أشرت : بطرت بسمنها ، يريد إحكام صنعتها ، وقوة الواحها ، واصلاح الملاحين لها . هوت : انسابت . الثبج : الوسط . الني : السمن .
(٨٧) يرهب الشيطان ظلها : يخافها لعظمها وسرعة مرها .

وأخذت الرياح القوية تدفعها ، وكانت المجاديف تساعدها في السير ، والملاّح المتمرس الحذر يقودها ويرفق بها ليرسيها حتى استقرت ، ثم أقلعت تشق الماء مقدمتها ، وتُوَجِّهه من مؤخرتها . ولم تزل مندفعةً في سيرها حتى أنهت رحلتها ، ورست في هدوءٍ ولِينٍ .

وهو يقترب من مسلم بن الوليد اقتراباً شديداً في هذا الوصف ، لأنه تخفف من بعض الصور البدوية الصحراوية بعض التخفيف ، دون أن يستغني عنها كلَّ الاستغناء . آية ذلك أنه يذكر اللقاح والنتاج ، والفحول والقوادم والزمام ، مع تشبيهه للسفينة في سرعتها بالحية التي تنساب في توجس .

ويجمع بين مسلم وأبي تمام أنهما تأنَّقا في أسلوبهما ، ولم يتخلَّيا في وصفهما للسفينة عما عرف عنهما من أنهما كانا يُلحّانِ على استخدام البديع من طباق وجناس ، ويعمدان إلى استنباط المعاني الخفية ، ويقعان على الاستعارات البعيدة ، طلباً للإطراف ، ومن ذلك قول مسلم إن السفينة حامل بكر ، وقول أبي تمام إنها « بنت حديقة » .

(٤)

« مرحلة النضج والكمال »

وأما مرحلة النضج والكمال فتظهر بأصفى صورها وأبعدها عن التأثر بالبيئة الصحراوية ، والأخيلة البدوية عند دعبل الخزاعي ، والحسين بن الضحاك ، إذ يقول أولهما وقد رأى عبد الله بن طاهر الخراساني ، وهو راكب في حراقة له بدجلة (٨٨) :

(٨٨) ديوانه ص : ١٨٣ .

عَجِبْتُ لِحَرّاقَةِ ابنِ الحُسَيْنِ كَيْفَ تَسِيرُ ولا تغرَقُ (٨٩)
وبَحْرانِ مِنْ تَحْتِها واحِدٌ وآخرُ مِنْ فَوْقِها مُطْبِقُ
وأعْجَبُ مِنْ ذاكَ عِيدانُها إذا مسَّها كَيْفَ لا تُورِقُ

فقد أوجز في وصف السفينة ورحلتها ، ولم يشبهها بشيء ، وإنما التفت إلى استخراج المعاني النادرة اللطيفة ، التي تروق وتعجب ، كقوله : إنها في بحرين : بحر من تحتها تعُوم فيه ، وبحر يعلوها ولا يغرقها ، وكدهشته لأن أعوادها لم تخضر ، ولا أورقت إذا لمسها ممدوحه لكثرة عطائه .

وطبيعي أن إيجازه هو الذي مكنه من إهمال أوصاف الإبل ، وهو يصف السفينة ، غير أن الحسين بن الضحاك أطال في وصفها ، وتجنب مع الإطالة استلهام التشبيهات الصحراوية ، حيث يقول (٩٠) :

رَحَلْنــــا غَرابِيبَ زَفّــافَةً بدِجْلَةَ في مَوْجِها المُلْتطِمْ (٩١)
إذا مـــا قَصَدْنــا لِقاطُولِها ودُهْمُ قَرَاقِيرِها تَضْطَرِمْ (٩٢)
سَكَنّــا إلى خَيْرِ مَسْكُونَةٍ تَيَمَّمَها راغِبٌ منَ أَمَمْ (٩٣)
كــأنَّ بهــا نَشْرَ كافُورَةٍ لبَرْدِ نَداها وطِيبِ النَّسَمْ (٩٤)
كَظَهْرِ الأديمِ إذا ما السَّحَــا بُ صابَ على مَتْنِها وانسجَمْ (٩٥)
مُبَرَّأَةٌ مِنْ وُحُولِ الشِّتَــاءِ إذا ما طمَى وَحْلُهُ وارْتَكَمْ (٩٦)

---

(٨٩) الحراقة : السفينة .
(٩٠) الأغاني ٧ : ١٩٥ ، ومعجم الأدباء ١٠ : ١٩ .
(٩١) الغرابيب : جمع غربيب ، وهو الأسود ، والمراد بها السفن . الزفافة : السريعة .
(٩٢) الدهم : السود . القراقير : السفن الطويلة .
(٩٣) امم : قرب .
(٩٤) النشر : الرائحة الطيبة المتضوعة .
(٩٥) الأديم : الجلد . صاب : انهل ونزل .
(٩٦) طمى : ازداد .

فَمَا إنْ يَزَالُ بِهَا رَاجِلٌ يُمِرُّ الهُوَيْنَى وَلا يَلْتَطِمْ (٩٧)
وَيَمْشِي عَلَى رِسْلِهِ آمِنًا سَلِيمَ الشِّرَاكِ نَقِيَّ القَدَمْ (٩٨)
وَلِلنُّونِ وَالضَّبِّ في بَطْنِهَا مَرَاتِعُ مَسْكُونَةٌ وَالنَّعَمْ (٩٩)
غَدَوْتَ على الوَحْشِ مُغْتَرَّةً رَوَاتِعَ في نَوْرِهَا المُنْتَظِمْ (١٠٠)
وَرُحْتُ عَلَيْهَا وَأَسْرَابُهَا تَحُومُ بِأَكْنَافِهَا تَبْتَسِمْ

وهو يصور ارتحاله إلى الخليفة الواثق على سفينة ضخمة سريعة كانت راسية بنهر دجلة ، وقد كانت الأمواج تضطرب من حولها ، وكيف أنه وصل إليها ، ونزل فيها ، فإذا هي آمنة مطمئنة ، تهب النسمات الندية المعطرة عليها ، وإذا هي تسير دون أن يتلوث جسمها أو شراعها بما كان في النهر من حطام وغثاء متناثرين على شاطئه ، وإذا الحيوانات المائية من حيتان وغير حيتان تطيف بها ، وتسير معها ، مبتهجة بأضوائها ، ومنتظرة الخير من ركابها .

وواضح أنه استغنى عن استعارة الألفاظ التي توصف بها النوق ، والتفت إلى الموقع الذي كانت راسية به ، والنهر الذي سارت فيه ، والحيتان التي اهتدت في الليل البهيم بأنوارها ، فأقبلت عليها ، وأحاطت بها ، دون أن يوازن بينها وبين الناقة أو يشبهها في شيء بها .

ومن المؤكد أن تأخر الحسين بن الضحاك عن سابقيه هو الذي أتاح له أنْ ينأى عن استخدام أوصاف الإبل ، فقد مهّدَ له الشعراء المتقدمون السبيل، فلما جاء هو بدأ من حيث انتهوا، فإذا هو يحقق هذا الوصف المُصفّى الخالي من آثار الصحراء للسفينة ورحلتها .

---

(٩٧) الهوينى : السير البطيء .
(٩٨) على رسله : في هدوء ويسر .
(٩٩) النون : الحوت .
(١٠٠) مغترة : غافلة .

ولعل في الشواهد الكثيرة التي ضربناها ما يظهر الفروق الواضحة بين وصف الشعراء العباسيين المتقدمين والمتأخرين للرحلة النهرية ، فقد سيطر الخيال البدوي على الأولين بحيث لم يقنعوا باستعارة أوصاف الإبل ، بل مضوا يقارنون بين السفينة والناقة . وقد خف تأثير البيئة الصحراوية في خالفيهم ، وأخذوا يُلِمّون ببعض التشبيهات البدوية ، مع التوسع في ذكر صفات النهر والسفينة والملاّح ، وبداية الرحلة ونهايتها. وأما الأخيرون فتحرّروا من الخيال البدوي ، وبدا وصفهم للرحلة النهرية مستقلاً عن وصف الرحلة الصحراوية ، خالياً من الصور البدوية .

الفصل الرابع

«في انعصر العباسي الثاني»

(١)

« وصف الرحلة النهرية »

لم ينوع الشعراء في العصر العباسي الثاني في موضوعات وصف البحر والنهر تنويعاً واسعاً ، فقد وقفوا وصفهم لهما على تصوير الرحلة النهرية إلى الممدوح ، تماماً مثلما فعل الشعراء العباسيون المتقدمون ، مع جنوح بعضهم إلى محاكاة النماذج العباسية الأولى منها محاكاةً هي أقرب إلى مرحلة البَعْثِ والإحياء ، التي ساد فيها تشبيه السفينة بالناقة ، ومع ميل بعضهم إلى فَصْلِ وصف الرحلة النهرية إلى الممدوح عن وصف الرحلة الصحراوية إليه فصلاً تاماً ، وتحقيق الاستقلال والكمال لها ، ورصدها من مبدئها إلى منتهاها ، والحديث عن رحلة العودة إلى الوطن ، وما كان يعتلج في نفسه من مشاعر وخواطر وهواجس تتراوح بين الخوف من الموت ، والحنين إلى الأهل والوطن . ولكنهم مع تركيزهم على وصف الرحلة النهرية استطاع بعضهم أن يبتكر موضوعاً جديداً ، هو وصف المعركة البحرية بين أسطول العرب ، وأسطول الروم .

وخير مثال على تقليد بعضهم للشعراء العباسيين الأوائل في وصف الرحلة النهرية إلى الممدوح ، واستلهام بيئة الصحراء ، وتشبيهاتها ، والناقة وأوصافها ، هذه الأبيات التي يتحدث فيها البحتري عن رحلته إلى إسحاق بن إبراهيم

المُصْعَبي ، صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل (١) :

وَرَمَتْ بِنا سَمْتَ العِراقِ أيانُقٌ
سُحْمُ الخُدودِ لُغامُهُنَّ الطُّحلُبُ (٢)

مِنْ كُلِّ طائِرَةٍ بِخَمْسٍ خَوافِقٍ
دُعْجٍ كما ذُعِرَ الظَّليمُ المُهذِبُ (٣)

يَحْمِلْنَ كُلَّ مُفَرَّقٍ في هِمَّةٍ
فُضُلٍ يَضيقُ بها الفَضاءُ السَّبْسَبُ (٤)

رَكِبُوا الفُراتَ إلى الفُراتِ وأمَّلُوا
جَذْلانَ يُبْدِعُ في السَّماحِ ويُغْرِبُ (٥)

فهو يصف ركوبه إلى ممدوحه في العراق سفينةً مَطْلِيَّةً بالقار ، قد تغير لونها ، واخضر بعض جسمها لطول ما بقيت في الماء ، ولكثرة ما تعلق بها من أعشاب النهر . وهي سفينة كانت تسير بسرعة شديدة لدفع مجاذيفها الأربعة لها ، ودفع الرياح لشراعها ، فإذا هي تشبه في اندفاعها وجريها سرعة الظليم المذعور في الصحراء . وإذا هو ورفاقه الذين ركبوا معه قد تفرقوا في البلاد بسبب ما انطوت عليه صدورهم من هِمَمٍ عظيمة بعيدة يضيق بها

---

(١) ديوانه ١ : ٧٣ ، وانظر الموازنة ٢ : ٣٠٧ .
(٢) السمت : القصد . الأيانق : جمع أينق ، وهو جمع ناقة . سحم الخدود : يريد سواد القار . اللغام : زبد الجمل . لغامهن الطحلب : يريد الخضرة التي تتعلق بالسفن من طول المكث في الماء .
(٣) خمس خوافق : أربعة مجاذيف وسكان ، أو قائم الشراع . دعج : يريد سواد القار أيضا . كما ذعر الظليم : يريد سرعة السفن ، وانبعاثها كما ينبعث الظليم ويجفل إذا فزع . الإهذاب : الإسراع .
(٤) مفرق : متقسم . همة فضل : بعيدة زائدة . السبسب : المفازة .
(٥) جذلان : نشوان .

الفضاء الفسيح يريدون الوصول إلى ممدوحه الأريحي الذي يلذ له الإبداع في الكرم والعطاء ، ويسكره الإغراب فيهما .

وتأثره بالخيال البدوي ، والتشبيه الصحراوي ظاهرٌ غيرُ خاف ، فقد جعل السفن نوقاً لها خدود ولغام ، كما شبهها في سرعة جريانها بذكر النعام المفزع .

وأما ابن الرومي فقد استهل مدحة من مدائحه بتصوير رحلته النهرية إلى الممدوح ، تصويراً يختلف فيه عن جميع الشعراء السابقين في جملة أشياء : أولها : أنه صَدَّر قصيدته به ، وجعله فاتحة مستقلة كاملة لها ، وقد كان غيره من الشعراء يفتتحون مدائحهم بالمقدمة الطللية أو الغزلية ، ثم يستعيضون عن وصف ارتحالهم في القفار على ظهور الإبل والنوق بوصف انتقالهم في الأنهار على ظهور السفن ، مُبْتَغِين التجديد في الأجزاء التي تلي المقدمات التقليدية ، وثانيها : أنه أطال في وصف رحلته إطالةً لم نعهدها عند سواه ، ولا رأيناها عند غيره . وثالثها : أنه لم يُعْنَ بوصف السفينة والنهر فحسب ، بل عُنِيَ أيضاً بوصف أحاسيسه وما كان يدور بنفسه من وساوس وهواجس كانت تخيل له أنه ميت لا محالة ، وأنه لن يرجع إلى أهله . وحقاً سبقه بعض الشعراء الجاهليين والعباسيين إلى ذلك ، غير أنه يتميز عنهم بإفاضته فيه ، وتشعيبه له .

واستمع إليه يصف رحلته في الذهاب وفي الإياب (٦) :

ذَكَرْتُكَ حين أَلْقَتْ بي عَصاها النَّوى يَوْماً بِنَهْرِ أبي الخَصيبِ (٧)
وقَدْ أَرْسَتْ بِنا في ضِفَّتَيْهِ الجَواري المُنْشئَاتُ مَعَ المَغِيبِ (٨)
غَدَوْنَ بِنَا ورُحْنَ مُحَمَّلاتٍ قُلُوباً مُوقَراتٍ بالكُرُوبِ (٩)

(٦) ديوانه ١ : ٥٤١ .
(٧) ألقت بي عصاها النوى : اي حين استقر . نهر ابي الخصيب : نهر بالبصرة لمولى من موالي ابي جعفر المنصور اسمه مرزوق .
(٨) الضفة : جانب النهر . الجواري : السفن . المنشآت : السفن المرفوعة الشرع .
(٩) موقرات بالكروب : مملوءة بالهم .

تَجُوزُ بِنَا البِحَارَ إذا استقَلّتْ وتُسلمُها الشَّمالُ إلى الجَنوبِ (١٠)
وبَيْنَ ضُلُوعِها أبْناءُ شَوْقٍ نَأَتْ بِهِمُ عَنِ البَلَدِ الرَّحيبِ (١١)
إلى دارٍ أبَتْ فيهـا المَنَايا رُجُوعاً للمُحِبّ إلى الحَبيبِ
فقُلْتُ ومُقْلَتَايَ حَيَاءَ صَحْبي تذودان الجُفُونَ عن الغُرُوبِ (١٢)
لَعَلّ الفَرْدَ ذا المَلَكُوتِ يوماً سَيَقْضي أوْبَةَ الفَرْدِ الغريبِ (١٣)
فَما بَرِحَتْ عَنِ العِبْرَيْنِ حَتى رُدِدنَ إلى الأبُلّةِ مِنْ قريبِ (١٤)
وَرَاحَتْ وهيَ مُثْقَلَةٌ تَهادَى إلى مغنى أبي الحَسَنِ الجديبِ (١٥)
مَحَلٌ مـا تَرى إلاّ صَرِيعـاً بِهِ مُلْقىً وذا خَدّ تَرِيبِ (١٦)
وطَالَ مُقامُنـا فيهِ وكادَتْ تَنَالُ نفوسَنا أيْدي شَعُوبِ (١٧)
فَلَمْ تَكُ حيلَةٌ نَرْجو صَلاحاً بها إلاّ التَضَرُّعُ للمُجيبِ (١٨)
ولمّـا حُمّ مَرْجِعُنا وصَحّتْ على الإيجافِ أعْنَاقُ القُلوبِ (١٩)
رَحَلْنا مِنْ بَنَاتِ البَحْرِ جُوناً تَهادى بينَ شُبّانٍ وشيبِ (٢٠)
نَواجٍ في البَطائِحِ مُلْقياتٌ حَيازِمَها على الهَوْلِ المهيبِ (٢١)

---

(١٠) تجوز : تقطع .
(١٠) نأت : بعدت . الرحيب : الواسع .
(١٢) المقلة : العين . الجفون : جمع جفن ، وهو غطاء العين من أعلى وأسفل . الغروب : جمع غرب ، وهو مجرى الدمع .
(١٣) الأوبة : العودة .
(١٤) العبر : جانب النهر . الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة بالبصرة .
(١٥) أبو الحسن : هو ممدوحه ، واسمه علي بن محمد ، وهو من أسرة بني فياض الفارسية ، التي كان لها شأن في ايام ابن الرومي ببغداد.
(١٦) خد تريب : علاة التراب .
(١٧) شعوب : اسم للمنية سميت به لأنها تفرق .
(١٨) التضرع : الدعاء .
(١٩) حم : حان وقرب . الإيجاف : الإرتعاش .
(٢٠) الجون : السود .
(٢١) النواجي : السريعة . الحيازم : جمع حيزوم ، وهو الصدر أو وسطه . المهيب : الذي يهابه الناس ويخافونه .

مُزَمَّمَـــةٌ الأواخِرِ سائِراتٌ　على أصْلابِها شَبَهُ الزَّبيبِ (٢٢)
مُسَخَّرَةٌ تَجُوبُ دُجَى اللَّيالي　بِمِثْلِ اللَّيلِ كالفَرَسِ الذَّنوبِ (٢٣)
أبَتْ أعْجَـــازُهـا بِمُقَدَّماتٍ　لها إلاَّ مُطـاوَعَةَ المُجيبِ (٢٤)
غَنينَ عَنِ القَوادِمِ والهَوادي　وعَنْ أسْراجِهِنَّ لدى الرُّكوبِ (٢٥)
حَطَطْنَ بواسِطٍ مِنْ بَعْدِ سَبْعٍ　وقَدْ مالَ الشُّرُوقُ إلى الغُرُوبِ
وَوَافَتْنا رِيــاحٌ حَـامِلاتٌ　إلينـا نَشْرَ لابِسَةِ الشَّروبِ (٢٦)
وألْبَسَتِ الهَواجِرُ في الفَيَافي　نَضارَةَ وَجْهِنا ثَوْبَ الشُّحوبِ (٢٧)
فَلَمْ نَمْلِكْ سَوابِقَ مُقْرَحاتٍ　مِنَ الأجفانِ بالدَّمعِ السَّكوبِ (٢٨)
ولمَّــا شارَفَتْ بَغْدادَ تَسْري　بِنا واللَّيْلُ مُزْوَرُّ الجُيوبِ (٢٩)
تَضايَقَ لي التَّصَبُّرُ عنْكِ شَوْقاً　واسْلَمَني الزَّفيرُ إلى النَّحيبِ (٣٠)

وهو يصف رحلته وصفاً مفصلاً ، فقد ابتدأت الرحلة من نهر أبي الخصيب ، حيث كانت السفن العظيمة راسية بشاطئه عند المساء . ولم تلبث السفينة التي حملته هو وأصحابه أن سارت فامتلأت قلوبهم خوفاً . ولم تزل تقطع بهم أميال النهر والرياح تدفعها حتى ابتعدت بهم عن بغداد ، واقتربت من بلد كان موطن ثورة ، فخشي على نفسه من الهلاك ، وانهارت أعصابه ، ثم أخذ يداري خوفه ، ويكفكف عبراته خجلاً من رفاقه ، ويتوجه بالدعاء

---

(٢٢) مزممة : مشدودة . الصلب : الظهر .
(٢٣) الفرس الذنوب : وافر شعر الذنب .
(٢٤) العجز : المؤخرة .
(٢٥) غنين : استغنين . القوادم ، والهوادي : الأعناق .
(٢٦) النشر : الرائحة المتضوعة . الشروب : جمع شارب .
(٢٧) الهواجر : جمع هاجرة ، وهي شدة الحر . الفيافي : القفار . الشحوب : الاصفرار .
(٢٨) السوابق : الدموع . المقرحات : العيون المريضة .
(٢٩) مزور الجيوب : متبدد الظلمات .
(٣٠) الزفير : شدة الأنين . النحيب : البكاء الشديد .

إلى الله أن يرجعه غانماً سالماً . وسرعان ما يزول الخطر ، وتنحرف السفينة إلى نهر الأبلة وتسير فيه إلى أن وصلت إلى غايتها ، فينزل منها ، ويقصد دار ممدوحه المهجورة التي كان القتلى منثورين حولها ، فيمدحه ، ويحظى بعطائه ، ولا يلبث أن يزهد في الإقامة عنده ، ويرغب في العودة إلى أهله ، فيدعو الله أن يتولاه برعايته ، وأن يكتب له السلامة . وتقترب ساعة الرحيل فترتاح نفسه ، ويفرح فؤاده ، وتحمله سفينة ضخمة مع رفاقه من الشيوخ والشبان ، ويصلون بعد سبع ليالٍ إلى واسط ، ثم يطلون على بغداد بعد أن اصفرت وجوههم ، وتغيرت ألوانهم ، فيستبشر خيراً ، ويذرف دموع الفرح لعودته إلى بيته وأهله سالماً .

وواضح أنه عُنِيَ أشدَّ العناية بتصوير مخاوفه وهو راكب تلك السفينة سواء في أثناء ذهابه ، أو في خلال إيابه . وهو تصوير يتفق مع ما كان يثور في نفسه من الهواجس ، وما كان يسيطر عليها من التَّطيُّر الذي كان يرى معه كل شيء نذيراً من نُذُرِ الشر . وإنْ كان قد ذكر بعض صفات السفينة فإن ذكره لوساوسه قد طغى على تصويره للسفينة والرحلة .

وواضح أيضاً أنه لم يتأثر بأوصاف الإبل والخيل كثيراً ، فقد شغل عنها بالحديث عن نفسه ، وإنْ كنا نُلاحظ أنه ألمَّ ببعضها كالأواخر والأصلاب والأعجاز والقوادم والهوادي والسروج فإن إلمامه بها ظل سريعاً موجزاً ، يقصد منه إلى الإطراف .

(٢)

« وصف المعركة البحرية »

وابتدع البحتري وصف الحرب في السفن ، فقد صور معركة بحرية بين أسطول العرب لعهد المتوكل ، وبين أسطول الروم ، أسفرت عن تحطم أسطول الروم تحطماً ، وانتصار أسطول العرب بقيادة أحمد بن دينار انتصاراً باهراً . وهو وصف كان البحتري سابقاً إليه كل الشعراء العرب الذين سبقوه ، والذين كانوا يعاصرونه حتى قال أبو هلال العسكري فيه (٣١) : « لم يَصِفْ أحدٌ من المتقدمين والمتأخرين الحرب في المراكب إلاّ البحتري » . وهو وصفٌ طويلٌ طولاً شديداً ، ونحن ننشده على طوله ، لروعته وندرة مثله (٣٢) :

وَلَمّا تَوَلّى البَحْرَ والجُودُ صِنْوُهُ
غَدَا البَحْرُ مِنْ أخلاقِهِ بينَ أبحُرِ (٣٣)

غَدَوْتَ على المَيْمُونِ صُبْحاً وإنما
غَدا المَرْكَبُ الميمُونُ تحتَ المُظفَّرِ (٣٤)

أطَلَّ بعِطْفَيْهِ ومَرَّ كأنّما
تشَوَّفَ مِنْ هادي حِصَانٍ مُشَهَّرِ (٣٥)

---

(٣١) ديوان المعاني ٢ : ٦٣ .
(٣٢) ديوانه ٢ : ٩٨٢ .
(٣٣) الصنو : الشقيق .
(٣٤) الميمون : اسم أطلقه ابن دينار على سفينته البحرية .
(٣٥) أطل : ظهر . تشوف : أشرف وارتفع وتطلع . العطف : الجانب . الهادي : العنق . المشهر : المشهور .

إذا زَمْجَرَ النُّوتِيُّ فَوْقَ عَلاتِـــهِ
رأيْتَ خَطِيباً في ذُؤابَةِ مِنْبَرِ (٣٦)

يغُضّونَ دُونَ الإشْتِيامِ عيونَهُمْ
وفوقَ السِّماطِ للعَظيمِ المؤمَّرِ (٣٧)

إذا عَصَفَتْ فيهِ الجنُوبُ اعْتَلى لهــا
جَناحا عُقابٍ في السّماء مُهَجِّرِ (٣٨)

إذا ما انكَفَأَ في هَبْوَةِ الماء خِلْتَهُ
تَلَفَّعَ في أثْناءِ بُرْدٍ مُحَبَّـــرِ (٣٩)

وحَوْلَكَ رَكّابونَ للهَوْلِ عـــاقَرُوا
كُؤوسَ الرَّدى مِنْ دارِعِينَ وحُسَّرِ (٤٠)

تَميلُ المَنايا حَيْثُ مالَتْ أكُفُّهُمْ
إذا أصْلَتُوا حَدَّ الحَديدِ المُذَكَّرِ (٤١)

إذا رَشَقُوا بالنّارِ لَمْ يَكُ رَشْقُهُمْ
لِيُقْلِعَ إلاّ عن شِواءٍ مُقَتَّرِ (٤٢)

---

(٣٦) النوتي : الملاح . العلاة : البرج .
(٣٧) الإشتيام : رئيس المركب . السماط : الصف .
(٣٨) عصفت : اشتد هبوبها . الجنوب : الريح التي تهب من الجنوب . العقاب : طائر جارح. المهجر : الضارب في الهاجرة اي الحر الشديد.
(٣٩) انكفا : مال . هبوة الماء : ما ارتفع ودق من الماء . اثناء : طيات . المحبر : الموشى .
(٤٠) الدارع : لابس الدرع . الحاسر : من لا درع عليه .
(٤١) أصلت السيف : جرده من غمده . الحديد المذكر : أجود انواع الحديد .
(٤٢) يقلع : يزول . الشواء المقتر : اللحم المحترق يتصاعد منه القتار .

صَدَمْتَ بهمْ صُهْبُ العَثانِينِ دونَهُمْ
ضِرابٌ كإيقادِ اللّظَى المُتَسَعِّرِ (٤٣)

يَسُوقُونَ أسْطُولاً كأنَّ سَفِينَهُ
سَحائبُ صيفٍ من جَهامٍ ومُمْطِرِ (٤٤)

كأنَّ ضَجيجَ البَحْرِ بينَ رِمَاحِهِمْ
إذا اخْتلفَتْ ترجيعُ عَوْدٍ مُجَرْجِرِ (٤٥)

تُقارِبُ مِنْ زَحْفيهِمُ فكأنّما
تُؤلّفُ منْ أعناقِ وحشٍ مُنَفّرِ (٤٦)

فما رُمْتَ حتى أجلَتِ الحرْبُ عن طُلىً
مقَطّعَةٍ فيهمْ وهَامٍ مُطَيّرِ (٤٧)

على حينَ لا نَقْعٌ يطوّحُهُ الصَّبا
ولا أرْضَ تُلْفى للصّريعِ المقطّرِ (٤٨)

وكنْتَ ابنَ كِسْرى قبلَ ذاكَ وبعدَهُ
مَلِيّاً بأنْ تُوهي صَفاةَ ابنِ قيصَرِ (٤٩)

---

(٤٣) صهب اللحى : شقرها أي الروم . المتسعر : الملتهب .
(٤٤) الجهام : السحاب لا ماء فيه .
(٤٥) اختلفت : تداخلت وتضاربت . العود : المسن من الإبل . مجرجر : من جرجر البعير اذا ردد صوته في حنجرته .
(٤٦) منفر : جافل مفزع .
(٤٧) رام : زال وفارق . الطلي : الأعناق . الهام : الرؤوس .
(٤٨) النقع : الغبار . المقطر : المصروع المطروح على الأرض .
(٤٩) ابن كسرى : يريد ان ابن دينار فارسي الأصل . الصفاة : الحجر الصلد الضخم . مليا : جديراً .

جَدَحَتَ لهُ المَوْتَ الذُّعافَ فعافَهُ
وطارَ على ألواحِ شَطَبٍ مُسَمَّرِ (٥٠)

مَضى وهو مَوْلى الرّيحِ يَشكُرُ فَضْلَها
عليهِ ومَن يُولَ الصَّنيعةَ يَشكُرِ (٥١)

إذا المَوْجُ لمْ يُبْلِغْهُ إدراكَ عَينِهِ
ثنى في انحِدارِ الموجِ لحظَةَ أخْزَرِ (٥٢)

تَعَلّقَ بالأرْضِ الكَبيرةِ بَعْدَما
تقَنَّصَهُ جَرْيُ الرَّدى المُتَمَطِّرِ (٥٣)

وهو يصف سفينةَ ابن دينار الحربية التي ركبها في الصباح ، فانطلقت به تجري ، وتبعتها سائر السفن تجرى معها في يسر ، وكأنما كان الأسطول يؤدي «عَرْضاً بحرياً» قبل أن يبدأ السير للغزو . فظهر ابن دينار من فوق سفينته التي لم تلبث أن أسرعت فبدا عليها وكأنه فارس على فرس مشهور . ثم ألقى رئيس الملاّحين الإداري الأوامر على رفاقه ممن كانوا يقومون بالإشراف على آلات الأسطول ، وكان القائد العسكري يستنفر الجنود ليصطفوا تَهَيُّؤاً لمرور أميرهم عليهم ، واستعراضه لهم ، فينتظمون في صفين متقابلين ، وتأخذهم الرهبة وهم ينتظرون أميرهم . ثم يقفز البحتري مسرعاً إلى وصف سير الأسطول في عرض البحر ، وقد أخذت الرياح العاتية تهب عليه ، فيصعد الملاّحون إلى أعالي الصواري ، ويشدون القلوع والشرع شداً محكماً قوياً ،

---

(٥٠) جدح : خلط . الذعاف : القاتل . عافه : رفضه . الشطب المسمر: الألواح المضروبة بالمسامير ، يريد السفينة .
(٥١) المولى : العبد .
(٥٢) الأخزر : الضيق العين .
(٥٣) المتمطر : المسرع في عدوه .

والأمواج الصاخبة تلتطم بالسفن ، والماء يتصاعد على جنباتها لافاً لها بغطاء رقيقٍ أبيض من طرائقه كأنها الثوب الرقيق المخطط . ويخلص من ذلك إلى وصف الجنود ، وكيف كانوا يحيطون بأميرهم ، مُنْصتينَ له ، ومُطيعينَ لأوامره ، مع ما كانوا يتحلون به من شدة العزم ، وبُعْدِ الهمم ، والخبرة الواسعة بالحروب والشدائد ، والاستعداد لخوض غمراتها ، ما بين لابسِ درعٍ ، متهيىء للقتال، ومتخففٍ منه ، قائمٍ بإدارة آلات السفن . ثم ينتقل إلى وصف المعركة البحرية ، موضحاً كيف أن الجنود بدأوا بقذف أسطول أعدائهم بالقذائف النارية التي لم تكن تخطىء أهدافها ، بل كانت تقع في الصميم منها ، محرقةً السفن ومن عليها ، فإذا هي تشتعل النار فيها ، وتتصاعد ألسنة الدخان والقتار منها ، ومُوضِّحاً كيف أن أسطول الروم كان مُتفرِّقاً في عرض البحر ، وكيف أن السفن العربية لحقت به ، ونزل جنودها فيه ، والتحموا مع جنود الروم في معركة شديدة بالسيوف والرماح ، لم يترك معها ابن دينار القتال إلاّ بعد أن سحق أعداءه سحقاً ، ومزقهم تمزيقاً ، فإذا أعناقهم مقطعة ، ورؤوسهم متناثرة في الماء حيث لا غبار يتطاير في سماء المعركة ، ولا أرض تقع عليها أشلاؤهم المبعثرة ، كما هي الحال في المعارك البرية ، وإذا قائد الروم يُولّي الإدبار ، ويفرّ بسفينته ، وإذا هو إنْ هَدَأَتِ الريح ، وأبطأت سفينته في السير ، ولم يدفعها الموج إلى المدى الذي كان يمتد إليه نظره ، يطوي أمله حَسِيرَ البصر ، كسير النفس ، وتظل الآمال تنازعه لعله يصل إلى الشاطىء ، وينجو من الهلاك .

وهذا وصف مفصل متكامل يأخذ كل جزء منه بالجزء الذي يليه ، ولا تزال الأجزاء تتوالى ، وتتواصل حتى تُكَوِّنَ الصورة العامة للمعركة . فقد استهله البحتري بتصوير سير الأسطول العربي للغزو ، ثم تحدث عن بحارته المهرة ، وفرسانه الشجعان ، ثم وصف المعركة البحرية التي دارت بينهم وبين

أعدائهم وصفاً دقيقاً ، ولم يزل يرصدها حتى انتهت بانهزام الروم ، وتحطم أسطولهم .

وهو وصف يستمد في بعضه من الاصطلاحات البحرية ، ويترك الأوصاف والتشبيهات البدوية ، إذ استخدم أدق المصطلحات البحرية ، كالنوتي والعلاة والاشتيام ، مع احتفاظه ببعض الصور البدوية كتشبيه ابن دينار وقد لاح من على سفينته ، ثم مرّ بها مروراً سريعاً ، بالفارس الذي ظهر من بعيد على فرسه ، ثم اندفع يَعْدُو به عدواً شديداً ، وتشبيهه أشرعة السفن المرتفعة إلى عنان السماء ، بأجنحة العقبان الطائرة في الهاجرة بكبد السماء ، وتشبيهه غطاء الماء الرقيق الذي كان يحيط بالسفن ويشملها ، وقد ضربها الموج بالثوب الأبيض الشفاف الموشى ، وتشبيهه سفن أسطول الأعداء في تفرقه وتشتته بسحب الصيف المتناثرة ، وتشبيهه أشرعة السفن وهي يدنو بعضها من بعضٍ بعُسْرٍ بأعناق الوحش المتنافرة الشاردة على غير هدى .

ولهذا الوصف قيمة تاريخية عظيمة ، لأنه يطلعنا على بعض الأحداث التاريخية التي أهملها المؤرخون العرب ، ولم يتحدثوا عنها إلاّ حديثاً موجزاً ، وهي تلك المعركة البحرية التي دارت بين أسطول الروم وأسطول العرب ، والتي حرفها المؤرخون البيزنطيون ، وذهبوا يقولون : إن أسطول الروم لم يتحطم بسبب قوة الأسطول العربي ، بل بسبب الإعصار والعواصف البحرية(٥٤) كما أنه يطلعنا على أنه كان للعرب في عهد المتوكل أسطول قوي كان يتألف من عدد كبير من السفن التي كان لها ملاّحوها وجنودها المتمرسون المدربون أحسن التدريب على القتال في البحر ، وقادتها المهرة العظام الذين كانوا يجيدون إدارة المعارك في البحر .

---

(٥٤) شعر الحرب في أدب العرب ص : ٢١٨ .

وهذان هما الموضوعان اللذان استغل فيهما شعراء العصر العباسي الثاني بيئة البحر والنهر ، فقد حصروا استفادتهم منها على وصف الرحلة النهرية إلى الممدوح ، وهو موضوع سبقهم إليه الشعراء العباسيون الأولون ، وأكثروا منه ، وقد أقلوا هم من وصفه . غير أن البحتري ابتدع في هذا العصر وصف القتال في المراكب .

« تعقيب »

لعل فيما قدمنا ما يُبين عن صورة البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي الثاني ، وما يكشف عن أثر البيئة الصحراوية التي نشأت بها اللغة العربية ، ولبَّتْ حاجاتها ، والتي اعتمد الشعراء العباسيون عليها في وصف السفن ، بحيث كانوا عاجزين عن ابتداع أوصاف جديدة يمكن أن توصف بها السفن على الحقيقة ، وبحيث ألغوا ملكاتهم اللغوية التي كان يجب أن تبتكر للموضوعات الجديدة التي كانوا ينظمون فيها مشتقات ومصطلحات جديدة تليق بها ، وتتناسب معها ، لا أن يستعيروا أوصافَ الإبل والنوق والخيل ، وينعتوا السفن بها على المجاز .

وفي الجملة فإن وصف الصحراء والإبل والخيل القديم ، المحدد المعاني ، والمباني قد جنى على وصف البحر والسفن جنايةً شديدةً في العصر العباسي ، بحيث قَصَّرَ الشعراء العباسيون عن اختراع أي كلمةٍ جديدةٍ يصح أنْ تُنْعَتَ السفن بها نَعْتاً حقيقياً ، لا نَعْتاً مجازياً .

المصادر والمراجع

١ ــ الآمدي : أبو القاسم ، الحسن بن بشر (ــ ٣٧٠ هـ)
الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري
تحقيق السيد أحمد صقر
طبع دار المعارف بمصر ١٩٦١

٢ ــ إبراهيم أحمد العدوي :
الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط
طبع مكتبة نهضة مصر بالفجالة

٣ ــ أحمد أمين :
فجر الإسلام
طبع مكتبة النهضة المصرية
الطبعة العاشرة ١٩٦٥

٤ ــ الأخطل : غياث بن غوث التغلبي (ــ ٩٢ هـ)
شعره
نشر أنطون صالحاني
طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩١

٥ ــ الأصمعي : أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب (ــ ٢١٦ هـ)
الأصمعيات
تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون
طبع دار المعارف بمصر
الطبعة الثالثة ١٩٦٤

٦ ــ الأعشى : ميمون بن قيس :
ديوانه
شرح الدكتور محمد حسين
طبع مكتبة الآداب بالجماميز

٧ ــ امرؤ القيس بن حجر الكندي
ديوانه
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٨

٨ ــ أوس بن حجر :
ديوانه
تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم
طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٠

٩ ــ بشار بن برد : (ــ ١٦٩ هـ)
ديوانه
تحقيق الطاهر بن عاشور
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة

١٠ ــ البحتري : أبو عبادة ، الوليد بن عبيد الطائي (ــ ٢٨٤ ﻫ)
ديوانه
تحقيق حسن كامل الصيرفي
طبع دار المعارف بمصر

١١ ــ بشر بن أبي خازم الأسدي :
ديوانه
تحقيق الدكتور عزة حسن
طبع دمشق ١٩٦٠

١٢ ــ البغدادي : عبد القادر بن عمر (ــ ١٠٩٣ ﻫ)
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب
طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٢٩٩ ﻫ

١٣ ــ أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي (ــ ٢٣١ ﻫ)
ديوانه
تحقيق الدكتور محمد عبده عزام
طبع دار المعارف بمصر

١٤ ــ الجاحظ : أبو عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب (ــ ٢٥٥ ﻫ)
الحيوان
تحقيق عبد السلام هارون
طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
الطبعة الأولى ١٩٣٨

١٥ ــ جواد علي :
تاريخ العرب قبل الإسلام
طبع بغداد

١٦ ــ جورج فاضلو حوراني
العرب والملاحة في المحيط الهندي
ترجمة الدكتور سيد يعقوب بكر
طبع مكتبة الأنجلو المصرية

١٧ ــ جوستاف لوبون :
حضارة العرب
ترجمة عادل زعيتر
الطبعة الثانية ١٩٥٦

١٨ ــ دعبل الخزاعي (ــ ٢٤٦ هـ)
ديوانه
تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم
طبع دار الثقافة ببيروت ١٩٦٠

١٩ ــ ابن رشيق القيرواني : أبو علي الحسن بن رشيق (ــ ٤٥٦ هـ)
العمدة في محاسن الشعر وآدابه
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
طبع مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثانية ١٩٥٥

٢٠ ــ ابن الرومي : علي بن العباس بن جريج (ــ ٢٨٤ هـ)
ديوانه
شرح الشيخ محمد شريف سليم

٢١ ــ زكي المحاسني :
شعر الحرب في أدب العرب
طبع دار المعارف بمصر ١٩٦١

٢٢ ـ ابن سلام : محمد بن سلام الجمحي (ـ ٢٣١ هـ)
طبقات فحول الشعراء
تحقيق محمود شاكر
دار المعارف ١٩٥٢

٢٣ ـ ابن سيدة : أبو الحسن علي بن إسماعيل (ـ ٤٥٨ هـ)
المخصص
طبع بولاق ١٣٣٦ هـ

٢٤ ـ طه حسين :
في الأدب الجاهلي
طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٢

٢٥ ـ طرفة بن العبد :
ديوانه
طبع دار صادر ببيروت ١٩٦١

٢٦ ـ ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (ـ ٣٢٨ هـ)
العقد الفريد
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة

٢٧ ـ عبد الله يوسف الغنيم :
الغوص على اللؤلؤ في المصادر العربية القديمة
طبع الكويت ١٩٧٣

٢٨ ـ عبيد بن الأبرص :
ديوانه
تحقيق الدكتور حسين نصار
طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٧

٢٩ — عبيد الله بن قيس الرقيات : (— ٧٥ هـ)
ديوانه
تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم
طبع ببيروت ١٩٥٨

٣٠ — ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم (— ٢٧٦ هـ)
الشعر والشعراء
طبع دار المعارف بمصر

٣١ — قيس بن الخطيم :
ديوانه
تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد
طبع دار العروبة بمصر ١٩٦٢

٣٢ — المثقب العبدي :
ديوانه
تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين
طبع بغداد

٣٣ — المسعودي : أبو الحسن ، علي بن الحسين (— ٣٤٦ هـ)
مروج الذهب ومعادن الجوهر
طبع دار الأندلس ببيروت

٣٤ — مسلم بن الوليد : (— ٢٠٨ هـ)
ديوانه
تحقيق الدكتور سامي الدهان
طبع دار المعارف بمصر

٣٥ ــ مصطفى السقا :
مختار الشعر الجاهلي
طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٤٨

٣٦ ــ ابن المعتز : عبد الله (ــ ٢٩٦ هـ)
طبقات الشعراء المحدثين
تحقيق عبد الستار فراج
طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٦

٣٧ ــ المفضل الضبي : (ــ ١٧٨ هـ)
المفضليات
تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون
طبع دار المعارف بمصر
الطبعة الثالثة ١٩٦٤

٣٩ ــ النابغة الذبياني :
ديوانه
تحقيق كرم البستاني
طبع بيروت

٣٩ ــ أبو نواس : الحسن بن هانيء (ــ ١٩٩ هـ)
ديوانه
تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي
طبع بيروت ١٩٥٣

٤٠ – أبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل (– ٣٩٥ هـ)
ديوان المعاني
نشر مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٢

٤١ – ياقوت الحموي : (– ٦٢٦ هـ)
(١) معجم الأدباء
طبع دار المأمون بالقاهرة ١٣٥٥
(٢) معجم البلدان
طبع طهران ١٩٦٥

محتويات الكتاب